

اهل الكدّيّة

أبطال المقامات في الأدب العربي

عبد النافع طليمات

دار ابن القيم

د. ابن زيد
للترجمة والتأليف والنشر
لغيره (السعيد) على خبره (النجد) (الفكر) (النسبي) (الفكر)

- ★ تنشر المعرفة في سبيل الحياة والشعب .
- ★ تبعث التراث العربي وتربطه بالفكر المعاصر .
- ★ تعمل على توحيد الفكر العربي لمكافحة الاستعمار وما يخلف من امراض قاتلة .
- ★ تربط الفكر العربي بالتراث الانساني الاكبر .
- ★ تربط الفكر بالعمل .

اهل الكدّيّة
أبطال المقامات في بلاد العرب

عبد النافع طليمات

دار ابن الجوزي

مقدمة

أكثر النقاد ومؤرخو الأدب من الكلام في مقامات
الهمذاني والحريري وفي قيمتها الأدبية . وكثر الجدل حول اعتبار
هذه المقامات قصصاً أو عدم اعتبارها كذلك ، وحول السبب في
تأليف الهمذاني والحريري وغيرها لها .

ونحن في هذا الكتاب لن نتعرض لدراسة المقامات من
جهة الأسلوب الأدبي أو التأليف الفني أو المكانة اللغوية ، بل
سنعتمد إلى وضع المقامات ، أو أول مظهر منها ، وهي مقامات بديع
الزمان الهمذاني ، في موضعها الزماني والمكاني وتبين العوامل
الاقتصادية والاجتماعية التي أوجدت نماذج من الناس أدت إلى
ظهور هذا النوع من الأدب .

أما الزمان فهو القرن الرابع الهجري ، وأما المكان فهو
العراق وما تلاه من جهة الشرق ، حيث عاش بديع الزمان الهمذاني ،
وحيث سنعتمد إلى التفتيش عن أساس أبطال هذه المقامات الاجتماعي ،
ذلك الأساس الذي أوحى إلى البديع بابتداع فن المقامات .

المحامي

حمص في ٢٠ / ٦ / ١٩٥٧ عبد النافع ظليمات

المقامات في التاريخ

احتلت المقامات مكانة مرموقة في الادب العربي منذ ظهورها حتى اليوم . وهناك شبه اجماع من النقاد ومؤرخي الأدب على أن أول من أوجد هذا الفن هو بديع الزمان الهمداني (ابو الفضل احمد بن الحسين ، ولد في همدان واستقر في خراسان ومات في مدينة هراة سنة ٣٩٨ هـ) ثم جاء الحريري (ابو محمد القاسم ابن علي الحريري الذي ولد لأسرة عربية سنة ٤٤٦ هـ بضاحية من ضواحي البصرة تسمى المشان وتوفي في البصرة أيضاً سنة ٥١٦ هـ) فأشار عليه من إشارته حكم ، وطاعته غم الى ان ينشئ مقامات يتلو فيها تلو البديع (١) . ويروون في التعليق على هذه العبارة ان المقصود بها هو الخليفة المستظهر كما يروون أنه الخليفة المسترشد او احد وزرائه (٢) . وان مقامات بديع الزمان الهمداني والحريري هي التي سارت وزادت شهرتها بين الناس رغم محاولة كثير من الكتاب تقليدها وعدم بلوغهم الغاية في ذلك .

فقد حاول تقليد بديع الزمان الهمداني ابو نصر عبد العزيز ابن عمر بن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، وابو القاسم عبد الله ابن محمد بن ناقي المتوفى سنة ٤٨٥ هـ . وطبعت لابن ناقياً تسع

(١) - مقامات الحريري ، المقدمة ، ص : ٥

(٢) - شوقي خبف : فنون الادب العربي ، المقامات ، ص : ٥٥

والحريري وسمى راويتها الفارس بن بسام المصري وبطلها أبا عمرو
التنوخى . وراه يقلد الحريري في بعض ألعابه الأدبية .. وقد يجعل
المقامة في وصف حمام أو محبرة أو قلم أو فرس أو معركة . وهو في
ذلك كله يثقل على النفس والاذن بما يستخدم أحيانا من كلمات نائية
أو موعلة في الغرابة . ونمضي في القرون التالية للقرن السادس
فتكثر المقامات ، ويكثر المقلدون ويتسع الموضوع الذي تخوض فيه ،
فقد يكون الحديث والفقه والنحو ، كما في مقامات ابن الصيقل
الجزري المتوفى سنة ٧٠١ هـ وعدتها خمسون ، نسب روايتها الى
القاسم بن جريال الدمشقي وحوادثها الى أبي نصر المصري . وقد
يكون الموضوع وصف الحيوانات مثل مقامات ابن حبيب الحلبي
المتوفى سنة ٧٧٩ هـ ، وقد يكون وصف البلدان مثل مقامات ابن
الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . وربما كانت مقامات السيوطي المتوفى
سنة ٩١١ هـ أشهر المقامات التي صنف في العصور الوسطى المتأخرة ،
وهي أشبه ماتكون بالرسائل ، فليس فيها بطل ولا راو ، إنما هي
رسائل مسجوعة قد تتحدث في موضوع خيالي مثل أنواع الطيب
وفوائد كل نوع ومفائده ، وأنواع الرياحين والزهور ودفاع كل نوع
عن نفسه ، وقد تتحدث في موضوع جدلي مما يتناقش فيه الفقهاء
مثل أبوي الرسول وحكمها في البعث والجزاء ، ومثل ضوفية ابن
الفارض وما اتهمه به خصومه . وقد تتحدث في موضوع اجتماعي
كالرخاء والغلاء . فهي بهذه الصورة أبحاث مسجوعة وقد ملأها

السيوطي بالحديث النبوي وبالمعلومات من جميع الفنون طيبة وغير
طيبة . وما تزال اللغة العربية تستقبل هذه الألوان المختلفة من
المقامات حتى يخرج العصر الحديث ، فيحاول غير واحد تقليد
الحريري ، ومن أشهر من قلده في القرن الماضي الشيخ حسن
القطار في مصر والآلوسي في العراق وفارس الشدياق وناصر
اليازجي في الشام . . . وقد نال اليازجي قصب السبق ، لا بين
معاصريه حسب ، بل بين كل من جاءوا بعد الحريري ، اذ عرف كيف
يقالده وكيف يحكم هذا التقليد ويضبطه ضبطاً دقيقاً ، فقد كتب
ستين مقامة واتخذ راوية هو سهيل بن عباد وبطلا هو ميمون بن
خزام ، وهو اديب شحاذ من نوع ابي زيد السروجي وأبي الفتح
الاسكندري بطلي مقامات الحريري والهمداني . . . ولا نباغ اذا
قلنا إن مقامة اليازجي تقليد دقيق لمقامة الحريري فهي تطابقها من
جميع الوجوه . . . وكأن اليازجي تخلى عن كل شيء فيه ليصنع
المقامة بالذوق الحريري وعلى السنن التي وضعها لها . حتى عصره
لا نجد له أي صدى في مقامته ، وكذلك البلدان التي اقترحها لها
اسماء لا نجد لها أي أثر في عمله ، فليكن اسم المقامة الشامية او
المصرية او اللبنانية ، فهذا الاسم لا يعني عنده شيئاً ، إنما هو بصدد
صورة أدبية عامة يعرضها ، وتصادف ان الحريري وبديع الزمان
من قبله سميا مقامتيهما باسم البلدان ، فاستن سنتهما واتبع

ونحن نرى من هذا العرض التاريخي البسيط ان المقامات المتأخرة قد تغيرت عن المقامات الاولى ، مقامات الهمداني والحريري ومن اتى بينهما ، ولا ينطبق عليها اسم « المقامات » بالنسبة الى تلك الا تجوزاً ، اللهم الا مقامات اليازجي التي كانت تقليداً تاماً لمقامات الحريري وليست ابنة عصرها في وجه من الوجوه . وقد رأينا كيف انصرفت المقامات المتأخرة الى معالجة المواضيع المختلفة من فقه وتصوف وطب ونحو ووصف الأشياء والحيوانات والبلدان . أما مقامات الهمداني والحريري فانها ليست اكثر من سرد لفترات من حياة واحد من المكدين او المتسولين يطوف من مكان الى مكان يستجدي الناس بفصاحته وبيانه ويحتال عليهم ، ويتقابل دائماً هذا الشخص المسمى بأبي الفتح الاسكندري في مقامات الهمداني وبأبي زيد السروجي في مقامات الحريري ، مع راوٍ له يحكي أخباره وهو عيسى بن هشام في المقامات الاولى والحاتر بن همام في الثانية ، كل ذلك بأسلوب فيه حرص على اظهار مقدرة المؤلف اللغوية والبيانية والبديعية وفيه عرض لآراء الكتّاب الأدبية والاجتماعية وغيرها في بعض الاحيان . وان الحرص على اظهار المهارة اللغوية والبيانية والبديعية في مقامات الحريري أقوى منه في مقامات الهمداني ، وهذه تفيض بالحوادث وتنفض بالحياة اكثر من تلك .

هل المقامة قصة ؟

يجيب مارون عبود على هذا السؤال بقوله : نعم ياسيدي، انها قصة ؛ والفرق بينها وبين قصص اليوم كالفرق بين هند امك انت وهند ام جدك رحمه الله (١). ويقول الدكتور شوقي ضيف : ليست المقامة قصة وانما هي حديث ادبي بليغ ، وهي أدنى الى الحيلة منها الى القصة ، فليس فيها من القصة الا ظاهر فقط ، أما هي في حقيقتها خيلة يطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على خادثة معينة ، ومن جهة ثانية على أساليب انيقة ممتازة . . فلم يتجهوا بالمقامة الى وصف حوادث النفس وحرركاتها ، ولا الى الافساح للعقل كي يعبر عن العواطف ويحلمها ، وانما اتجهوا بها الى ناحية لفظية صرفة (٢). ويقول ايضا : قد يكون من المغالاة ان نسميها قصصاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لأنها تفقد العقده والحبكة القصصية ، وقد يمكن ان تعتبر المقامات كلها قصة واحدة تعبر عن اطوار مستقلة من حياة بطلها . . او قل انها تعبر عن حوادث مستقلة من أيامه . والحق انها ليست اكثر من حيل تفسر حياة متكدي . . يحتمل على الناس بطرق مختلفة من بلاغته ليمتز اموالهم ، وما من ريب في ان هذه الصورة تخرج بالمقامات عن أسلوب القصص . . اذ لا نجد فيها طرافة القصص ولا

(١) - مارون عبود : بديع الزمان الهمداني ، ص : ٣٧

(٢) - شوقي ضيف : المقامة ، ص : ٩ - ١٠

طرافة الحوار التمثيلي (١) . وإن من يقرأ ، مقامات الهمذاني او
الحريري يجد ان الدكتور شوقي ضيف لم بجانب الصواب فيما قال ،
فان المقامة ليست قصة ، وليست نوعاً من الاحاديث أو الاخبار التي
تعجبها كتب الادب والاخبار ، وانما هي نوع من الادب قائم بذاته
هو : « المقامة » .

(١) - شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص : ١١٨ ،
طبعة اولى .

المقامة من ابتكار الهمداني

أما كيف ابتكر بديع الزمان فن المقامة فقد كثرت الأقوال في ذلك منذ القديم فنرى أبا إسحاق الحصري ، حين عرض لذكر بديع الزمان ، يقول :

« ولما رأى — أي الهمداني — أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وأبدأها للابصار والبصائر ، وأهدأها للأفكار والضماير ، في معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حججها الأسماع ، وتوسع فيها ، إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجود مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمئة مقامة (١) في الكدية تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً . . . وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها بين رجلين سمي أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندري ، وجعلها يتهاديان الدر ويتناقشان السحر ، في معانٍ تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة . . » (٢)

وقد أخذ الدكتور زكي مبارك بخناق هذا النص كمن عثر

(١) - الوجود منها والمطبوع اثنان وخمسون

(٢) - الحصري : زهر الآداب ، ج : ١ ، ص : ٣٠٧

تلى كنز ثمين وراح يؤكد ان بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات
وانما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٣١ هـ فقال :

كان المعروف ان بديع الزمان الهمداني اول من أنشأ فن
المقامات ، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب في سبق
بديع الزمان الى هذا الفن . . وفي رأيي ان الحريري هو الذي
اذاع هذا الغلط ثم آمن الناس بقوله اذ كان اشهر من اقبل الجمهور
عليهم من كتاب المقامات ، وهو في مقدمة مقاماته ينسب الى بديع
الزمان فضل السبق اذ يقول : « وبعد فانه قد جرى ببعض انديّة
الادب الذي ركدت في هذا العصر ريحـه ، وخبث مصايحه ،
ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همدان ، رحمه الله
تعالى ، وعزا الى ابي الفتح الاسكندري نشأتها ، والى عيسى بن
هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . فأشار
من إشارته حكم ، وطاعته غم ، الى ان أنشيء مقامات اتلو فيها تلو
البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع . . . هذا مع اعترافي بأن
البديع ، رحمه الله ، سباق غايات ، وصاحب آيات ، وان المتصدي
بعده لانشاء مقامة ، ولو أوتي بلاغة قدامة ، لا يغترف الا فضالته ،
ولا يسري ذلك المسرى الابدالته . » وقد وصلت الى ان بديع الزمان ليس
مبتكر فن المقامات ، وانما ابتكره ابن دريد . . وعندي ان من
اسباب غفلة مؤرخي الآداب عن كشف هذا الخطأ ان ابن دريد
سمى قصصه « أحاديث » في حين ان بديع الزمان سمي قصصه

« مقامات » (١) .

ولو رجعنا الى احاديث ابن دريد التي أوردناها القالي في اماليه وجدناها تختلف عن المقامات اختلافاً بيناً في الشكل والموضوع ، فان ابن دريد يقص فيها بأسلوب مسجوع قصصاً وحوادث مختلفة تتعلق بمواضيع شتى مثل تصوير الشائل العربية وطريقة النساء في فهم الرجال واعجاب البنات بأعمال الآباء وما يقع من الملاحاة بين الازواج والتواصي بين الشباب والكهول وتصوير شجعان العرب وفرسانهم واجوادهم الخ . . وهذا كله يضعف مزاعم الدكتور مبارك . واننا لنجده ، بعد ما أوردناه من كلامه ، يعود فيقول :

ومع ان ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات فان عمل بديع الزمان في هذا الفن اقوى واظهر ، وطريقته في القصص تختلف عن طريقة ابن دريد ، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في اذهانهم غير فن بديع الزمان ، فهو بذلك منشى هذا الفن في اللغة العربية . (٢)

ثم يقول :

ونحن من وجهة التاريخ نرى ان ابداع فن المقامات يعد

(١) - الدكتور زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع ، ج : ١ ،

ص : ١٩٨ - ١٩٩

(٢) - المرجع السابق ، ص : ٢٠١

فتح عظيماً في اللغة العربية ، ولا بد ان يكون معاصرو بديع
الزمان تلفتوا الى فنه تلفت الدهشة والاستغراب وعدوه من كبار
المبدعين . (١)

ويوافق الدكتور زكي مبارك في هذا الرأي الدكتور
شوقي ضيف في كتابه : « المقامة » حيث قال :

إن احاديث ابن دريد هي التي ألهمت بديع الزمان مقاماته —
ويورد كلام الحصري ثم يقول : — ولا تدور هذه الاحاديث على
الكدية ، كما هو الشأن عند بديع الزمان ، ومع ذلك فالصلة بين
العملين واضحة . وذلك ان احاديث ابن دريد تصاغ في شكل رواية
وسند يتقدمها ، ثم هي غالباً مسجوعة ، وتمتلىء باللفظ الغريب . فهي
احاديث ألقت لغرض تعليم الناشئة اللغة ، بالضبط كما حاول بديع
الزمان في أحاديثه ، وان كانت خفيفة رشيقة ... وليس ذلك
حسب ، فقد تكون الفكرة التي ادار حولها مقاماته ، وتقصد
الكدية او الشجادة ، استمدتها مباشرة من « خطبة الاعرابي
السائل في المسجد الحرام » التي رواها صاحب الامالي عن ابن
دريد . . . وانه عارضه بها معارضة . على أنه ليس وحده الذي ألهم
البديع مقامته ، فهناك عمل آخر للجاحظ أثر فيه أثراً بليغاً ؛ إذ
تحدث في بعض كتبه عن أهل الكدية حديثاً طويلاً وقص نوادرهم .
وقد احتفظ البيهقي في كتابه « المحاسن والمساوي » ، بفصل طريف

(١) — المرجع السابق ، ص : ٢٠٤

من هذا العمل . ونحن لانطلع على هذا الفصل حتى نقطع بأن
البديع أطلع على هذا العمل للجاحظ ، وانه هو الذي اوحى اليه
ان يدير أغلب مقاماته على الكدية ... ومضى ذلك اننا نظن ظناً ان
البديع قد استوحى في عمله ما كتبه الجاحظ وقصه عن أهل
الكدية ، كما استوحى في عمله ايضاً ما كتبه ابن دريد من احاديثه
المعروفة في كتاب « الأمالي » . فهو قد اطلع على العاملين . ومن
غير شك يعلو في التأثير فيه العمل الاول على العمل الثاني ، فإن
دريد وجهه ليكتب احاديث تعليمية ، أي اثر فيه من جهة الشكل ،
اما الجاحظ فأثر فيه من جهة الموضوع ، اذ جعله يدير احاديثه
او مقاماته على الكدية . (١)

إن ما سقناه للرد على الدكتور زكي مبارك يصح للرد على
شوقي ضيف أيضاً من جهة الاختـذ بأقوال الحصري عن تقليد
الهمداني لابن دريد ، اما عن تأثر الهمداني موضوعاً بالجـاحظ
فاننا نقول : نعم ، ان الجاحظ كتب عن أهل الكدية وحياتهم ونواذرهم
ما ذكره الدكتور شوقي ضيف ، ونضيف اليه ان الجاحظ اورد في كتابه
« البخلاء » فصلاً عن التكدية والمكدين وحياتهم وطرق تحصيلهم
المال واسباب العيش وهو بعنوان : « حديث خالد بن يزيد » (٢) .

(١) - الدكتور شوقي ضيف : المقامة ، ص : ١٧ - ٢٠

(٢) - راجع البخلاء للجاحظ ، نشرة دار الكاتب المصري ، ص :

ولكن ذلك كله لا يشا كل المقامة ولا يوجب ان
 الحمداني اخذ مواضع مقاماته مما كتبه الجاحظ عن أهل الكدية .
 وان الصواب في هذا الأمر هو ان الجاحظ وغيره كتبوا عن
 جماعة أهل الكدية هؤلاء باعتبارهم فئة متميزة من الناس اخذت
 تظهر في المجتمع الاسلامي منذ ايام الجاحظ ثم كثرت كثرة بالغة في
 ايام الحمداني فكانت هي واعمالها ومفارقاتها وحيلها ونواذرهما
 باعثاً له على تأليف مقاماته وجعل ذلك كله موضوعاً لها . وقد قال
 الدكتور شوقي ضيف ، بعد كلامه الذي اوردناه ، ما يلي :
 ولا بد ان نضيف الى عمل الجاحظ عملاً آخر لا يقل أهمية
 عن عمله ، بل قد يتقدمه ، وهو بروز هذه الطائفة من اصحاب
 الكدية في عصر البديع ، وكانوا حينئذ يعرفون بالساسانيين . (١)
 وهو يقول في موضع آخر :

على انه ينبغي ان نتلقى كلام الحصري بشيء من الشك . .
 ويزيدنا شكاً واتهاماً ان مارواه صاحب الامالي عن ابن دريد في
 كتابه يدل — من بعض الوجوه — على ان احاديثه كانت تخالف
 مقامات الحمداني في موضوعها ، اذ ان مارواه له يدور حول حكايات
 عربية قديمة ، للتاريخ والحب فيها نصيب ، بينما أقاصيص بديع
 الزمان تدور على التسول والكدية ، وقد نسجت كلها حول شخصية
 واحدة هي شخصية ابي الفتح الاسكندري . ومن يدري؟ ربما ساق

(١) الدكتور شوقي ضيف : المقامة ، ص : ٢٠

الحصري ماساق عن ابن دريد ليدل على مبلغ تفوق الهمداني على
 شيخ من شيوخ اللغة المعروفين ، وخاصة انه كان يتعصب لبديع
 الزمان ، فهو يوازن بين صنعيهما ليشهد للبديع بتفوقه ، وقد ذهب
 يقول : ان عمل البديع يذوب ظرفاً ويقطر حسناً ، بينما عمل ابن
 دريد يذوب عنجية ويقطر ألفاظاً وحشية ، وهذا هو كل ما اراده
 الحصري من مقابله بين العاملين ، اما ان مقامات البديع سبقت
 مقامات لابن دريد فشيء لم يكن يدور بخالده ، إنما هو يوازن
 بين مطلق قصص ، وهي موازنة يريد ان ينفذ منها الى تفضيل بديع
 الزمان ، وهذا هو كل ما يمكن ان يفهم من نصه ، ومن اجل ذلك
 كنا نميل الى الوقوف مع الحريري اذ يقول في مقدمة مقاماته : قد
 جرى ببعض اندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحـه ،
 وخبث مصايحه ، ذكر المقامات التي ابتدئها بديع الزمان ، وعلامة
 همدان ، فأشار من إشارته حـكم ، وطاعته غم ، الى ان أنشيء
 مقامات اتلو فيها تلو البديع . فالحريري يرى ان المقامات من ابتكارات
 بديع الزمان ، وحق ما راه ، فانه لا يعرف ان احداً سمي قصصه
 باسم المقامات قبله ، وعلى كل حال من المبالغة ان يربط باحث بين
 مقامات البديع وبين احاديث ابن دريد لمجرد نص الحصري ، وقد
 يكون اولى من ذلك ان تربط بينها وبين اخبار اهل الكدية في
 عصره ، وقد كانوا يسمون باسم الساسانيين . . ومن يقرأ في
 اليتيمة يجد طائفة الساسانيين هذه تحتل حيزاً في الحياة الادبية

للقرون الرابع الهجري . (١)

وبناء على ماتقدم نجد انه لا مناص لنا من اهمال نص
الحصري او من الاخذ به على الوجه الذي اخذ به الدكتور
شوقي خيف هنا والعودة الى ما قلناه اولاً من ان المقامات ليست
اكثر من سرد لفترات من حياة واحد من المكدين يطوف من
مكان الى مكان يستجدي الناس بفصاحته وبيانه ويحتال عليهم وذلك
بأسلوب فيه حرص على اظهار مقدرة المؤلف اللغوية والبيانـية
والبديعية . ونحن سنأتي فيما يلي بعرض تاريخي يوضح لنا كيف
ظهر ابطال المقامات في المجتمع الاسلامي ، وهم اهل الكدية الذين
كثروا في القرن الرابع الهجري واحتلوا مكاناً ملحوظاً في الحياة
الاجتماعية والادبية مما أوحى الى بديع الزمان الهمداني بجعل حياة
هذه الطائفة موضوعاً لأدبه وبابتداع فن المقامات .

(١) - الدكتور شوقي خيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص :

تطور المجتمع الاسلامي حتى القرن الرابع الهجري

تمر الشعوب خلال تطورها بعهود وادوار تطور متشابهة هي عهد المشاعية البدائية، وآخر مراحل عهد نظام الامومة، والعهد الابوي (البطريكي)، وعهد الرق، وعهد الاقطاع والعهد البورجوازي، وعهد الاشتراكية. . الخ. وليس هناك حد ناجز يفصل بين عهد وعهد؛ فاننا نجد في الحاضر بقايا الماضي وبذور المستقبل. ويؤكد التاريخ ان ليس الزامياً ابدأ على كل شعب ان يمر في جميع مراحل التطور الاجتماعي، فقد وجد كثير من الشعوب في شروط تمكنها اجتنب هذا العهد او ذاك من عهود التطور والانتقال دفعة واحدة الى مرحلة عليا، (١) كأن يستولي شعب متأخر في التطور على شعب آخر في مرحلة اعلى او يندمج فيه فيتجنب المرور في المراحل او العهود الفاصلة بين درجتي تطورها، او انه يمر بتلك العهود مرأً سريعاً ويأخذ بها في آخر اشكالها فتبدو عنده مختلفة عن اصلها المعروف نوعاً ومختلطة ببعض مظاهر العهد التالي. فالبلاد العربية اليوم مثلاً، وبصورة خاصة مصر وسوريا، تتجه نحو النظام الرأسمالي، الا انها تأخذ بهذا النظام في آخر اشكاله التي وصل اليها ومشوباً بكثير من المبادئ الاشتراكية.

١ - موجز الاقتصاد السياسي لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي،

ترجمة جريدة الاخبار، القسم السابع.

كان العرب عند ظهور الاسلام في مرحلة الانتقال من النظام القبلي الابوي الى عهد الرق . ولم يكن العرب كلهم في ذلك الحين على درجة واحدة من التطور ، فكان هناك منهم من لا يزال متأخراً في تطوره ومغرقاً في البداوة ، كما في شرقي شبه الجزيرة العربية ، وجنوبها ، ومنهم من كان قد قطع شوطاً بعيداً في الحياة المدنية المستقرة من زراعة وتجارة وصناعة حرفية تقوم على الرقيق كما في الحجاز واليمن ومدن السواحل والاطراف في الشام والعراق ، حيث أنشئت ممالك او حكومات مدن (كومون) . وقد تمسك الاخرون بالاسلام المنظم للحياة المدنية اكثر من القبليين الذين لم يتأخر قسم كبير منهم عن الارتداد منذ ان علموا بوفاء النبي ، خصوصاً وان الاسلام قد قضى على العادات القبلية وأهمها الغزو الذي هو من الموارد المعاشية الاساسية في أدوار البداوة . فقضى المسلمون من أهل الحجاز على ردتهم هذه . وإن حروب الفتوح قد أرضت ميول هؤلاء البدو الحربية وشغلتهم عن مناوأة الدولة الى حين ، حيث عادت هذه المناوأة الى الظهور في الانتفاضة على عثمان وفي الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية وفي حركات الخوارج بعد ذلك .

وكان نظام الرق الذي اقره الاسلام ونظم احكامه يختلف عن نظام الرق لدى الأمم القديمة الاخرى ويتميز ، هو والحياة الاجتماعية في عهود الاسلام الاولى ، بالميزات الآتية :

١ — بقاء بعض مظاهر الحياة القبلية القديمة ، وخصوصاً في العهد الأموي ، وظهور النزاع بين القديم والجديد ، كما في النزاع بين العدنانية والقحطانية ، وبين الخوارج والدولة الأموية .
٢ — لم تكن الفتوحات تؤدي إلى استرقاق المملوك بصورة عامة ، كما كان عليه الحال لدى اليونان والرومان مثلاً ، بل كانت تتبع في معاملة العدو الأحكام الآتية :

يقول القاضي أبو يوسف : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان بعث عليهم رجلاً من أهل الفقه والعلم ، فاجتمع إليه جيش ، فبعث عليهم سلامة بن قيس فقال : « سر باسم الله ، تقاتل في سبيل الله من ، كفر بالله ، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوه إلى ثلاث خصال : ادعوه إلى الإسلام ، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة وأيسر لهم في في المسلمين نصيب ، وإن اختاروا أن يكونوا معكم فليهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم ، فإن أبوا فادعوه إلى إعطاء الجزية ، فإن أقروا بالجزية فقاتلوا عدوهم من وراءهم وفرغوه من خراجهم ولا تكافوهم فوق طاقتهم ، فإن أبوا فقاتلوهم فإن الله ناصركم عليهم ، وإن تحصنوا منكم في الحصن ... وقاتلوهم فلا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » . قال سلامة : فسرنا حتى لقينا عدونا من المشركين فدعوناهم إلى ما أمر به أمير المؤمنين فأبوا أن يسلموا فدعوناهم إلى إعطاء الجزية فأبوا أن

يقروا بها ، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم ، فقتلنا المقاتلة وسببنا
الذرية . (١)

ويروي البلاذري على لسان شويس العدوي أنه قال : أتينا
الاهواز وبها ناس من الرط (٢) والاساورة (٣) فقاتلناهم قتالاً
شديداً فظهرنا عليهم وظفرنا بهم فأصبنا سبياً كثيراً اقتسمناهم ؛
فكتب الينا عمر أنه لا طاقة لكم بمارة الأرض فخلوا ما في أيديكم من السبي
واجعلوا عليهم الخراج ؛ فرددنا السبي ولم نملكهم (٤) .

٣ — ظهور نظام الولاء وخاصة ولاء الموالاتة بشكل واسع
في المجتمع الاسلامي على الوجه الذي سنفصله فيما بعد .

وبالإضافة الى ذلك ، فإن بعض البلاد المفتوحة ، وبصورة
خاصة بلاد فارس ، كانت قد اجتازت عهد الرق ووصلت الى مرحلة
تفككه وظهور بوادر النظام الاقطاعي ، فنحن نرى في كتب
التاريخ والفتوح ان البلدان والمقاطعات الفارسية كان يحكمها المرازبة
والدهاقين (٥) الذين كانوا يتمتعون ببعض الاستقلال الذاتي في

١ — ابو يوسف : الخراج ، ص : ١٩٣ - ١٩٤

٢ — معرب « جت » . كانوا في جند الفرس ممن سبوه وفرضوا
له من اهل السند وسنتكم شيئاً عنهم فيما بعد .

٣ — الحرس الفارسي او الرماة بالسهام .

٤ — فتوح البلدان ، ص : ٣٧٠

٥ — جاء في القاموس المحيط ان الدهقان هو : زعيم فلاحي العجم
ورئيس الاقليم ، وان المرازبة هم : رؤساء الفرس .

حكمهم لمقاطعاتهم ، بدليل انه بعد القضاء على سلطة ملك فارس
يزدجرد بن شهریار ظل هؤلاء المرازبة والدهاقين في أطراف
البلاد يحكمون مقاطعاتهم ، فكان الجيش الاسلامي يحارب كل واحد
من هؤلاء فاما ان يقضي على سلطته وحكمه عنوة ، وإما ان يعقد
معه صلحاً على جزية سنوية أو يسلم ويظل في مركزه تابعاً للدولة
الاسلامية . وقد كان هؤلاء المرازبة والدهاقين من العاملين بمجد
على تقويض السلطة الاموية حيث ساعدوا العباسيين مساعدة فعالة
وتمتعوا تحت ظلمهم بنوع من الاستقلال الذاتي أخذ ينمو على مر الايام .
ومن هنا جاء ما نلاحظه في الدولة الاسلامية ، في اول
عهدا ، من اختلاط بين نظام الرق ونظام الاقطاع حيث كانت
السلطة مركزية بصورة عامة ، مما يلائم نظام الرق ، ولكن كان
يخالطها بين الفلاحين والمقطعين او بين الفلاحين وبعض الولاة
والامراء والقواد والدهاقين والمرازبة علاقات اقطاعية محلية ، كما ان
الدولة حلت ، عن طريق نظام الخراج ، محل ملك فارس وقواده
والدهاقين الزائليين او الجائين في ملكية الارض وفي تناول حصتهم
من المحصول .

يروى البلاذري أنه ، إثر وقعة جلولاء سنة ست عشرة
هجرية ، أسلم جميل بن بصبري ، دهقان الفلاليج والنهرين ،
وبسطام بن رسي ، دهقان بابل وخطرنية ، والرفيد ، دهقان العال ،
وفيروز ، دهقان نهر الملك وكوثي ، وغيرهم من الدهاقين فلم

يعرض لهم عمر بن الخطاب ولم يخرج الارض من أيديهم وأزال
الجزية عن رقابهم (١) .

ويروي أيضاً : أن العرب لما نزلت أذربيجان نزلت اليها
عشائرها من المصريين (يعني الكوفة والبصرة) والشام وغلب كل
قوم على ما أمكنهم وابتاع بعضهم من العجم الارضين وألجئت (٢)
اليهم القرى للخفارة فصار أهلها مزارعين لهم (٣) .

ويحدثنا كذلك : أن القاسم بن أمير المؤمنين الرشيد ولي
جرجان وطبرستان وقزوین فألجأ اليه أهل زنجان ضياعهم تعزراً
ودفعاً لمكروه الصعاليك وظلم العمال عنهم ، وكتبوا له عليها الاثرية (٤)
وصاروا مزارعين له . . وكان القاقزان عشرياً لان أهله أسلموا عليه
وأحيوه . بعد الاسلام فألجأوه الى القاسم أيضاً على أن جعلوا
له عشرأ ثانياً سوى عشر بيت المال (٥) . وكان أهل الشعيبية من
الفرات جعلوها لعلي بن أمير المؤمنين الرشيد في خلافة الرشيد على
أن يكونوا مزارعين له فيها ويخفف مقاسمتهم ، فتكلم فيها فجعلت

١ - فتوح البلدان ، ص : ٢٦٥

٢ - الاجساء : هو ان يكتب الفلاحون أملاكهم صورياً للامراء
والاعيان حتى يخف عنهم الخراج بمقدار النصف او الربع ؛ وكثيراً ما ضاعت
أملاكهم من هذا الطريق فادعى الاغنياء ملكيتها او ادعاهم ورثتهم من
يعدم (احمد امين : ظهر الاسلام ، ج : ٢ ، ص : ١٤)

٣ - فتوح البلدان ، ص : ٣٢٤ - ٣٢٥

٤ - أي عقود الشراء

٥ - فتوح البلدان ، ص : ٣١٩

عشرية من الصدقة (١) وقاسم أهلها على ما رضوا به (٢) .
وأصفى (٣) عمر بن الخطاب من السواد أرض من قتل في
الحرب وأرض من هرب وكل أرض كسرى وكل أرض لأهل بيته
وكل مغيض ماء وكل دير يزيد وكل صافية اصطفاها كسرى (٤) .
ولم يمنع هذا كله نظام الرق من البروز في المجتمع الاسلامي
وسيطرته على طريقة الانتاج وعلاقاته فيه ، ولكنه كان ، للأسباب
التي أوضحناها ، نظاماً قصير الامد لم يلبث أن أخذ في التحلل منذ
القرن الثالث الهجري على الوجه الذي سنبينه فيما بعد .
وهكذا كان المجتمع الاسلامي ، في القرنين الاول والثاني

١ - أي حولها من أرض خراجية إلى أرض عشرية حيث نقص نصيب
بيت المال من محاصيلها . أما حد أرض العشر من حد أرض خراج فكل أرض أسلم
عليها أهلها وهي من أرض العرب أو أرض العجم فهي لهم وهي أرض عشر . .
وكذلك من لا تقبل منه الجزية ولا يقبل منه إلا الإسلام أو القتل ومن عبدة
الاوثان من العرب فأرضهم أرض عشر ، وإن ظهر عليها الإمام . . . وأما دار
من دور الاعاجم قد ظهر عليها الإمام وتركها في أيدي أهلها فهي أرض خراج
« حيث يؤخذ من الفلاح الذي ترك في يده حصة معينة من المحصول » ، وإن
قسمها بين الذين غنموها فهي أرض عشر . . . وكل أرض من أراضي الاعاجم
صالح أهلها عليها وصاروا ذمة فهي أرض خراج . « أبو يوسف : الخراج ، ص :
٦٩ » .

٢ - فتوح البلدان ، ص : ٣٦٤

٣ - أي جعلها لبيت المال .

٤ - المرجع السابق ، ص ٢٧٢

يتألف ، بصورة عامة ، من العرب الفاتحين ومن الارقاء والموالي وأهل الذمة . وقد اجتفظ العرب الفاتحون لانفسهم بالوظائف الادارية العليا وبالجنديّة ؛ وكانت تقضي القواعد التي سنّها عمر بن الخطاب بأن يكون كل مسلم جندياً من جنود الاسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد في كل لحظة . . وأن يمنح من بيت مال المسلمين عطاءً معيناً مقابل خدماته . وكان المسلمون يوزعون جنودهم فيما كانوا يفتحونه من الولايات . . وكانت حياة العرب تتفق مع تلك النزعة الحربية ؛ فقد كان ممنوعاً عليهم ملكية الارض (١) بصورة عامة ، وقد رد عمر بن الخطاب على من رأى توزيع الاراضي المفتوحة على المحاربين بقوله :

« لكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوهم (٢) فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه أو أنا في توجيهه ، وقد رأيت ان أحبس الارضين بعلو جهتا واضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم . رأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ، رأيتم هذه المدن العظام — الشام والجزيرة والكوفة

١ - فان فلوتين : السيادة العربية : ص : ١٦ - ١٩ .

٢ - العلوج : الفلاحون .

والبصرة ومصر — لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدراج العطاء
عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج ؟ « (١) .
فكان العرب والحالة هذه يعيشون من العطاء والمعاون
والغنائم ويحتفظون بالمراكز العليا في الدولة والمجتمع ؛
وتركت الزراعة والصناعات للارقاء والموالي وأهل الذمة . ومن
هنا جاء ما نشاهده لدى العرب سادة البلاد المفتوحة آنذاك من
استحقار لتلك المهن وأصحابها كما في قصيدة أبي بجير في تأنيب آل
عبد القيس لتزويجهم الموالي ... قال أبو بجير :

أمن قلة صرتم الى أن قبلتم

دعارة زراع وآخر تاجر

وأصهب رومي وأسود فاحم

وأبيض جعد من سراق الاحامر (٢)

وقد قال ابن خلدون : أما العرب الذين أدركوا هذه
الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة
وحاميتها وأولي سياستها ... والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع
والمهن وما يجبر اليها ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم والمولدين (٣) .
كانت أسرة الرجل العربي تتألف من زوجته وأولاده

١ - كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف ، ص : ٢٥ .

٢ - محمد الطيب النجار : الموالى في العصر الاموي ، ص : ٤١ .

٣ - ابن خلدون : المقدمة ، ص : ٥٤٤ .

وأرقائه ومما يتبع هؤلاء من الموالى بنوعيه : موالى العتاقة وموالى الموالاة . ومولى العتاقة هو رقيق أعتقه سيده فيصير المعتق منسوباً إلى المعتق بالولاء . ويسمى هذا ولاء العتاقة وولاء النعمة . ومولى الموالاة هو رجل ينتمي لآخر بالمخالطة أو بالمخالفة فينسب إليه ، أو ينتمي إلى قبيلة من القبائل فينسب إليها (١) . وقد يتم عقد المخالفة هذا بين جماعتين ، بين فئة من الناس وقبيلة .

روى البلاذري فقال : كان سياه الاسواري على مقدمة زردجرد ثم إنه بعث به إلى الاهواز ، فنزل الكلبانية وأبو موسى الأشعري محاصر السوس ، فلما رأى ظهور الاسلام وعز أهله وأن السوس قد فتحت والامداد متتابعة إلى أبي موسى أرسل إليه : انا قد أحببنا الدخول معكم في دينكم على أن نقاتل عدوكم من العجم معكم ، وعلى أنه إن وقع بينكم اختلاف لم نقاتل بعضكم مع بعض ، وعلى أنه إن قاتلنا العرب منعمونا منهم وأعنتمونا عليهم ، وعلى أن ننزل بحيث شئنا من البلدان ونكون فيمن شئنا منكم ، وعلى أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الأمير الذي بعثكم . . فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر أن اعطيهم جميع ما سألوا . . فلما صاروا إلى البصرة سألوا بني الاحياء أقرب نسباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل : بنو تميم . وكانوا على أن يحالفوا الأزد فتركوهم وحالفوا بني تميم . . ثم انضم إلى الاساورة السيابجة ،

وكانوا قبل الاسلام بالسواحل ، وكذلك الزط وكانوا بالطفوف
يتبعون الكلاء ، فلما اجتمعت الاساورة والزط والسيابجة تنازعهم
بنو تميم فرغبوا فيهم ، فصارت الاساورة في بني سعد ، والزط
والسيابجة في بني حنظلة (١) .

وقد كثر نوع مولى الموالات بعد الاسلام ، لأن الاسلام
أعز العرب ورفع من شأنهم حتى صاروا سادة وأصحاب شوكة
وقوة فكان أهل البلاد المفتوحة . . حينما يسلمون ، ينضمون الى
العرب ويدخلون في خدمتهم ، ويتحالفون معهم لكي يعزوا
بشوكتهم وقوتهم وبذلك يصبحون موالى . . بالخلف والموالات (٢) .
وقد روى عن الرسول (صلعم) قوله : الولاء لجهة كلحمة النسب .
وصاحب الولاء يرث المولى اذا لم يكن له وارث ويعقل عنه .
وقد جعل بعضهم للرجل وللاء من يسلم على يديه وحجتهم في ذلك
حديث تميم الداري قال : سألت رسول الله (صلعم) عن المشرك
يسلم على يدي مسلم ، فقال : هو أحق الناس وأولاهم بحياته ومماته ؛
وقضى به عمر بن عبد العزيز (٣) . وكان من قوة هذه الرابطة
الاجتماعية وانتشارها أننا لو استعرضنا المعروفين من المسلمين غير
العرب في عهود الاسلام الاولى لوجدنا اسم كل واحد منهم مقرونة

١ - فتوح البلدان ، ص : ٣٦٦ - ٣٦٧

٢ - الموالى في العصر الاموي ، ص : ١٤

٣ - ابن رشد : بداية المجتهد ، ج : ٢ ، ص : ٣٥٦

بكلمات : مولى فلان ، او مولى القبيلة الفلانية . فبال ، مؤذن
الرسول ، مولى أبي بكر ، وسلمان الفارسي مولى بني عبد القيس ،
ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وربيعة الرأي مولى آل المنكدر التميميين ،
وسعيد بن جبير مولى بني ربيعة بن الحارث ، والحسن البصري كان
أبوه مولى زيد بن ثابت الانصاري وأمه مولاة أم سلمة (١) ،
وبشار بن برد مولى بني عقيل ومحمد بن منذر الشاعر مولى بني
صبير بن ربوع ، وأبو حازم سلمة بن دينار مولى الاسود بن
شعبان المخزومي ، وزيد بن ميسرة مولى عبد الله بن عياش بن أبي
ربيعة القرشي (٢) ، وعمرو بن عبيد مولى بني تميم ، وأبو الهذيل
الغلاف مولى بني عبد القيس ، وأبراهيم بن سيار النظام مولى
الزياديين ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ مولى كنانة (٣) ،
وغيرهم كثيرون . ونقل الاستاذ أحمد أمين عن (ولها وزن) أن
أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالي ، وكان هؤلاء
الموالي يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان أكثرهم
فرساً في جنسهم وفي لغتهم ، جاءوا الكوفة أسرى حرب ، ثم
دخلوا الاسلام ، ثم أعتقهم مالكوهم العرب فكانوا موالي لهم ؛
وبذلك صاروا أحراراً ، ولكنهم ظلوا في حاجة الى حماية ساداتهم ،

١ - الموالي في العصر الاموي ، ص : ٨٣ وما يليها

٢ - البيان والتبيين للجاحظ ، الجزء الاول وحواشيه طبعة هارون .

٣ - الدكتور البير فادر : فلسفة المعتزلة ، ج : ١ ، ص : ١٥

وما يليها .

فهم حاشية العرب وأتباعهم في السلم والحرب (١) . ويحدثنا
البلاذري ان ابا مسمود الكوفي قال : كان مع رستم يوم القادسية
اربعة آلاف يسمون جنود شهبان شاه فاستأمنوا على ان ينزلوا حيث
أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء ، فأعطوا الذي
سألوه ، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم وأنزلهم سعد
بحيث اختاروا ، وفرض لهم في ألف ألف ، . . ثم إن زياداً سير
بعضهم الى بلاد الشام بأمر معاوية فهم بها يدعون الفرس ، وسير
منهم قوماً الى البصرة فدخلوا في الاساوره الذين بها (٢) .

عاش المجتمع الاسلامي في عهوده الاولى متمسكاً بروابط
الرق والولاء بين المغلوبين وبين العرب وبروابط خضوع هؤلاء
العرب وأتباعهم وأهل الذمة جميعاً للدولة الاسلامية التي كانت في
أوج قوتها ومركزيتها في ذلك الحين حيث لم يشذ على هذه الرابطة
ولم ينفرط من عقدها الا بعض القبائل العربية التي كانت متأخرة في
سلم الحضارة والتمدن حين مجيء الاسلام فاعتنقت الاسلام على شكل
ساذج لم تستطع معه الرضا عن حياة اهل الحجاز وحكمهم فواصلت
الخروج على الامويين ، وإلا بعض حركات وانتفاضات ثورية ، غير
مجدية ، قام بها الأرقاء والموالي من الشعوب المغلوبة ، بين حين
 وآخر بزعامه آل البيت وتحريضهم حيناً ، وبزعامه غيرهم من الناقمين

١ - فجر الاسلام ، ص : ١١٥

٢ - فتوح البلدان ، ص : ٢٧٩

حيناً آخر . فالأرقاء من جهة هم كانوا رازحين تحت وضعهم البائس
ومخبولين وجهالاً ، الى درجة كانوا معها عاجزين عن إعداد أي
تفكير أكثر تقدماً من افكار طبقة مالكي الأرقاء . . وهذا هو
أحد اسباب الطابع العفوي كلياً وغير المنظم لانتفاضات الأرقاء (١) .
وكذلك كانت حالة الموالي في القرن الأول الهجري ، فان حركاتهم
الثورية الناقمة لم تصبح على درجة من الخطورة الا في القرن الثاني
حيث تجلت في الحركة الشعبية بجميع مظاهرها ، وفي ثورتهم على
الحكومة الاموية بقيادة العباسيين ، ثم في ثورة المأمون على
الأمين .

ولكن تلك الروابط الاجتماعية المستقرة ما لبثت ان
ضعفت بتوالي الاجيال وتطور المجتمع الطبيعي ، ذلك التطور الذي
كان من مظاهره ازدياد اتساع الامبراطورية الاسلامية ، حيث
أدت الحروب والفتوحات الى زيادة عدد الرقيق في المجتمع زيادة
كبيرة ، فقد كان الرقيق في ذلك العهد أهم عنصر من عناصر الانتاج
والثروة لأن قوة الانتاج الرئيسية في عصر الرق هي الرقيق .
فيحدثنا البلاذري مثلاً ان الربيع بن زياد الحارثي ولي بعض نواحي
سجستان مدة سنتين ونصف فحاصر مدينة زرنج فصالحه مرزبانها
أبرويز على ألف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب ، وانه
سبي في ولايته هذه أربعين ألف رأس ، ثم ولي عبد الرحمن بن

١ - موجز الاقتصاد السياسي ، القسم السادس .

سمرة بن حبيب بن عبد شمس سجستان فأتي زرنج ، بعد نقضها
الصلح ، فحصر مرزبانها في قصره في يوم عيد لهم فصالحه
على ألفي ألف درهم وألفي وصيف (١) . وذهب محمد
بن القاسم الى فتح بلاد السند فوصل الى الملتان
وحصر أهلها فلما عظموا نزلوا على الحكم فقتل محمد المقاتلة وسبى
الذرية وسبى سدة البد (٢) وهم ستة آلاف وأصاب ذهباً كثيراً (٣) .
ولما استخلف المنصور أمير المؤمنين ولي معن بن زائدة
الشيواني سجستان . . . وكانت عدة من سبى وأسر زهاء ثلاثين
ألفاً (٤) . وكان رافق نحو أسلوب الانتاج القائم على الرق طلب الى الرقيق
يتزايد باستمرار . فلم يكن للأرقاء ، بصورة عامة ، أية عائلة فكان
الاستثمار الضاري يؤدي الى هلاكهم بسرعة . وغدا الامر يتطلب
دائماً أرقاء جدد . وكانت الحرب المزود الأكر بالأرقاء . فكان
يحول الى أرقاء ليس الجنود الأسرى وحسب ، بل كذلك جزء
كبير من أهالي البلدان المفتوحة عنوة ، في بعض الأحيان . وغدت
تجارة الرقيق أحد الفروع الأكثر ربحاً والأكثر ازدهاراً ، وقامت
لهذا الغرض مراكز خاصة وأسواق يلتقي فيها البائعون والمشترون

١ - فتوح البلدان ، ص : ٣٨٦

٢ - البد : المعبد

٣ - فتوح البلدان ، ص : ٤٢٧

٤ - المرجع السابق ص : ٣٩٢

القادمون من بلدان بعيدة (١) فكان في بغداد شارع يسمى «شارع دار الرقيق» .. وسمي تاجر الرقيق «نخاساً» .. واشتهر كثير من النخاسين في بغداد ، وسبب شهرتهم ما لهم من جوارحسان يأوي إليهن الشعراء والأدباء ، منهم بالكرخ مثلاً نخاس يكنى «أبا عمير» كان له جوارح قيان لهن ظرف ، وكان من جوارحه جارية تسمى «عبادة» هو يها عبد الله محمد بن البواب فيقول :
لو تشككي أبو عمير قليلاً
لأتيناه من طريق العيادة
فقضينا من العيادة حقاً
ونظرنا في مقلتي عبادة (٢)
وقد كثر الرقيق كثرة بالغة كما كثرت أجناسه وألوانه حتى أنهم وضعوا الكتب في ميزات كل جنس منه وفي طرق تمييز الحسن من الرديء منه كما فعل الجاحظ وغيره . ومما يعطينا فكرة عن كثرة عدد الرقيق ماروي عن الرشيد من أنه كان يملك زهاء ألفي جارية من المغنيات والخدمة في الشراب .. وأنه كان للمتوكل أربعة آلاف سرية (٣) . هذا من جهة الخدم والمغنيات والسرديات فبالك من جهة الذكور الذين يستخدمون في زراعة الاراضي وفي الصناعات ؟

بيد أن نظام الرق تمزقه تناقضات مستعصية تؤدي في النهاية

١ - موجز الاعتماد السياسي ، القسم الخامس

٢ - ضحى الاسلام ، ج : ١ ، ص : ١٥ - ١٦

٣ - المرجع السابق ، ص : ٩

الى انهياره . فان شكل الاستثمار الذي يقوم على الرق يدمر القوة
المنتجة الرئيسية في المجتمع ، ألا وهي الرقيق .. فالحصول على الأرقاء
الجدد ورخص ثمنهم هما شرطا وجود الاقتصاد القائم على الرق .
لقد كانت الحرب ينبوعاً لا ينضب للرقيق . وكانت قدرة المجتمع
العسكرية تقوم في بادئ الامر على جهود القبائل العربية ثم على
جهود صغار المنتجين من الأحرار والموالي ، الفلاحين والصناع ،
من الفرس الذين كانوا يؤلفون القسم الأعظم من الجيش . ولكن
مزاحمة الانتاج الكبير ، القائمة على العمل المستعبد الرخيص ،
والاعباء الملكية والحروب المنازعات المستمرة كانت تقضي على
الفلاحين والصناع . فرأينا الملاكين والمستثمرين يستغيضون عنهم
بأعداد كبيرة من الرقيق في الزراعة والحرف حيث أنشئت
استثمارات كبرى لتربية الماشية والزراعة والصناعات ؛ ومن لا يعرف
زنوج البصرة الذين كانوا يعملون في مزارعها والذين بلغ من
كثرتهم ان ثاروا أيام المعتمد واحتلوا البصرة وما جاورها وبنوا
الحصون والمدن وظلوا يقاومون جيوش الخليفة ، بضع عشرة سنة .
ورأينا ايضاً الخليفة المعتصم بجند الأرقاء الأتراك . فقد استقدم سنة ؟
٢٢٠ هجرية قوماً من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنه
وغيرها من البلاد التي نسميها « تركستان » وما وراء النهر ،
اشترأهم وبذل فيهم الاموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق

الذهب (١) . ولم يكن شراء المعتصم لهم بقصد الاسترقاق والخدمة
وانما بقصد تجنيدهم والاستظهار بهم . لقد قدم العباسيون الفرس بعد
قيامهم على الامويين وأخذهم السلطة من ايديهم ، وبعد الحرب بين
الأمين والمأمون وانتصار هذا الاخير بجيوشه الخراسانية على أخيه
الأمين ، واخذ نفوذ هؤلاء الفرس ، وخصوصاً الاسر الاقطاعية
منهم (اسر الدهاقين والمرازية القدماء) يتعاضم . فلم يهدأ هؤلاء
الفرس منذ رأوا الاتراك تحتل مراكزهم في الدولة العباسية وتستبد
بالسلطان دونهم ، وتقصيصهم عن أماكنهم . لقد كان الفرس في
العصر العباسي الاول هم عماد الدولة ، وييدهم تصرف شؤونها
وكان الخليفة يعتمد عليهم في اهم الامور ، وهم يحتفظون له بمظهر
الامية والجلالة ، ثم ينشرون سلطانهم ؛ فاذا احس الخليفة منهم
استبداداً او وقع بهم ، كما فعل المنصور بأبي مسلم الخراساني ،
والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل ، ولكنهم سرعان
ما يستردون نفوذهم . فلما جاء الاتراك ابعدهم عن منزلتهم وغلبوا
على الخليفة دونهم . فانكش الفرس على حنق ، ولعبت بهم العصبية
الفارسية ، واخذوا يدسون الدسائس ويدبرون المؤامرات
ويخصون انفسهم بالرجال والسلاح ، ويرمون الى اقتطاع البلاد
والاستيلاء عليها — وخصوصاً بلادهم الفارسية — والاستقلال بها

عن خلفاء بغداد (١) فأخذ العالم الاسلامي في التجزؤ والتفتت شيئاً فشيئاً وأصبح اهم مظهر يأخذ بالابصار في اوائل القرن الرابع الهجري ما حصل للدولة الاسلامية من الانقسام . . حيث صارت عبارة عن دول متعددة مستقلة ، علاقة بعضها مع بعض علاقة مخالفة أحياناً وعداً غالباً وأصبح لكل دولة مالها وجندوها وادارتها وقضاؤها وسكتها واميرها ، ان اعترف بعضها بالخليفة في بغداد حيناً من الزمن ، فاعتراف ظاهري ليس له اثر فعلي (٢) ، فهي مستقلة في جميع امورها عن الخلافة ؛ وقد كانت فارس والري والجل ، في ذلك العهد ، في ايدي بني بويه ، وكرمان في ايدي بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج الاخشيد ، والمغرب وافريقيا في يد الفاطميين الذين استولوا على مصر ايضاً في عام ٣٥٨ ، وخرسان في يد نصر بن احمد الساماني ، والاهواز وواسط والبصرة في يد البريديين واليمامة والبحرين في يد القرامطة ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، ولم يبق للخلافة العباسية الا بغداد (٣) التي استولى عليها البويهيون في آخر الأمر ، فأصبحت الحالة كما يقول المسعودي : « وما أشبه أمور الناس بالوقت الا بما كانت عليه ملوك الطوائف بعد قتل الاسكندر بن فيلبس

١ - المرجع السابق ، ص : ٩ ؛

٢ - المرجع السابق ، ص : ٩٠ ؛

٣ - المرجع السابق ، ج : ٢ ، ص : ١ ؛

المكدوني الملك داريوش وهو دارا بن دارا ملك بابل الى ظهور
أردشير بن بابك الملك ، كل قد غلب على صقعه ، يحامي عنه ويطلب
الازدياد اليه ، مع قلة العمارة وانقطاع السبل وخراب كثير من
البلاد وذهاب الاطراف « (١) وقد أخذت تغلب على المجتمع
الاسلامي منذ ذلك الحين سمات الاقطاعية .

كان من نتيجة هذا الانقسام ان اضطرب حمل الأمن بين
الولايات والمدن الكبيرة الغاصة بالناس وخصوصاً الارقاء ،
وانقطعت سبل التجارة وانحصرت التجارة الواسعة في ايدي
الاغنياء من اصحاب القوة والنفوذ . وكان من جراء كثرة الحروب
والفتن بين الامراء والقواد وتنازعهم على النفوذ والسلطان ان
فسدت المشارب ، وبطلت المصالح ، وأتت الجوائح على التناء (٢)
ورقت أحوالهم ، فمن بين هارب جال ، وبين مظلوم صابر
لا ينصف ، وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع ليا من شره (٣) ؛
كما كان من جراء تجزؤ المملكة وانقطاع سبل التجارة
وكسادها أن أصبح الانتاج القائم على الرق غير رابح فكان كثير
من الاسياد ، وخصوصاً صغارهم ، يعمدون الى تحرير أرقائهم بالجملة ،
هؤلاء الارقاء الذين لم يعد عملهم يأتي بأية مداخيل ، فان العمل

١ - التنبيه والاشراف ، ص : ٣٤٦ - ٣٤٧

٢ - التناء : الفلاحون

٣ - مسكويه : تجارب الامم ، ج : ٢ ، ص : ٩٧

المستعبد كان يستنزف عمل الارقاء الذين لم يكونوا يعيرون الانتاج أي
اهتمام إذ لا مصلحة لهم فيه . فتمر كزت الثروات من منقول ورقيق
وأراض في أيدي قليلة ، وانحدر غالبية السادة الاحرار القدماء الى
طبقة الصناع والفلاحين والفقراء من الموالى ؛ فاختلط هؤلاء
بأولئك وضاعت الروابط الاجتماعية القديمة .

الوضع الاجتماعي والطبقي في القرن الرابع الهجري

حيثما نظرنا الى كل قطر من أقطار العالم الاسلامي في ذلك العصر ، رأينا الثروة غير موزعة توزيعاً عادلاً ولا متقارباً ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح ، فجنة ونار ، ونعيم مفرط ، وبؤس مفرط ، وإمعان في الترف يقابله فقدان القوت (١) . فقد كان الناس الأحرار في هذا القرن ثلاث طبقات متميزة : الطبقة الأولى ، طبقة الأرسقراطيين من خلفاء ووزراء وتجار كبار وأشراف ، والطبقة الوسطى من تجار متوسطين وملاك متوسطين ونحوهم ، وهي طبقة أصبحت قليلة العدد ، وطبقة فقيرة وهي عامة الشعب من الأرقاء المتحررين وصغار الفلاحين والصناع والعلماء الذين بعدوا عن الخلفاء والوزراء والأمراء .

فأما أفراد الطبقة الأولى ، فكان المال يتدفق عليهم وهم ينفقونه في إسراف ، هم ونسائهم واتباعهم .. فالخليفة مع ضعفه كان يعد الرئيس الديني حتى للبلاد المفصولة . فكان يجبي خراجاً من هذه البلاد ثم يسرف فينه هو ونسائهم . يحكون أنه مدح شاعر امرأة من البيت المال كخشت فمه دراً باعه بعشرين ألف دينار . وامتلات بيوت هذه الطبقة بالجوارى والغلمان من سود وبيض ، حتى قالوا : إنه بلغ عدد خدام المقتدر

١ - ظفر الاسلام ، ج : ١ ، ص : ٩٧

(الذي قتل سنة ٣٢٠ هـ) أحد عشر ألف خصي من الروم
والسودان ؛ الى غير ذلك من القصور الفسيحة والغرف العديدة ،
حتى أن معز الدولة بنى داراً في بغداد وأنفق عليها ثلاثة عشر مليون
درهم (١) . وأنشأ عضد الدولة البويهى بستاناً بلغت النفقة عليه وعلى
سوق الماء اليه خمسة آلاف ألف درهم . والوزير ابن مقلة (وزير
المقتدر والمتقي والراضي) يربي الحيوانات في قصره ويعني بها أكبر
عناية ، فكان له بستان عظيم ، عدة أجربة ، شجر بلا نخل ، عمل
له شبكة أبريسم ، وكان يفرخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر
كالقماري والدباس والهزار والبيغ والبابل والقبج ؛ وكان فيه من
الغزلان والنعام والآيئل وحمير الوحوش ؛ وبشر مرة بأن طائراً
بحرياً وقع على طائر بري ، فباض وفقس ، فأعطى من بشره بذلك
مائة دينار . والوزير أبو الحسن بن الفرات كان يملك أموالاً
كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف دينار ، وكان يستغل من ضياعه في
كل سنة ألفي ألف دينار وينفقها (٢) ؛ وكان الوزير المهلبى (وزير
معز الدولة البويهى) كثير الشغف بالورد ؛ روى من شاهده قال :
شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتاع له في ثلاثة ايام ورد بألف دينار ،
فرش به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة كانت في داره ، ولها
فوارات عجيبة ، يطرح الورد في مائها فتنفضة على المجلس فيقع على

١ - المرجع السابق ، ص : ١٢ - ١٣

٢ - المرجع السابق : ج ١ ، ص : ١٠٣ - ١٠٤

رءوس الجالسين ؛ وبعد شربه عليه ، وبلوغه ماأراد منه ، انهيته (١) .
 وكان من ظرفه في فعله ونظافته في مأكله ، أنه كان اذا أراد
 أكل شيء ملعقة كالأرز واللبن وأمثلة ، وقف من جانبه الايمن
 غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجروداً ، وكان يستعمله كثيراً ،
 فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها
 الى غلام آخر قام من الجانب الايسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل
 الاولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة الى فيه دفعة ثانية (٢) .
 وكان الوزير صاحب بن عباد يعجبه الخبز ويأمر بالاستكثار منه
 في داره ، فكان جميع من فيها من الخدم والحاشية عليهم الخروز
 الفاخرة الملونة (٣) .

وانتشرت مجالس الشراب ، ووضعت لها القواعد والقوانين
 والآداب كالذي فعله الشاعر « كشاجم » في تأليف كتابه « أدب النديم »
 وتفتنوا فيما يكتب من الشعر على القناني والكاسات . واعتاد
 الخلفاء الوزراء والامراء مجالس الشراب وبالغوا في الاسراف
 فيها (٤) ، فكان في بيوت الكبراء الى جانب صاحب المطبخ رجل
 يسمى الشرابي شأنه العناية بالشراب وآلته وبالفاكهة

١ - المرجع السابق ، ص ١٠٤

٢ - أقسام ضائعة من كتاب « تحفة الامراء في تاريخ الوزراء » لـ هلال

الصاي ، جمع مخائيل عواد ، ص : ٣١ - ٣٢

٣ - الثعالبى : يتيمة الدهرج : ٣ ، ص : ١٩٠

٤ - ظهر الاسلام ، ج : ١ ، ص ١٠٤ - ١٠٥

والروائع (١) ، وكان هذا الترف يستتبع عدداً كبيراً من
المغنين والمغنيات (٢) .

وتفننوا في الصناعات الجميلة من انواع الحللي والدقسة في
النسيج وزركشة الثياب وانواع العطور ، والنقش والتصوير ،
واصناف الازياء والمأكول والمشروب ، والبساتين والحدائق ، والغناء
والموسيقى مما يطول شرحه ...

وبلغوا من الاناقة في المعيشة ان جعلوا للظرف والظرفاء
قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف ، والفوا في ذلك
الكتب كالموشى للوشاء ، و « حدود الظرف » له ايضاً ، و « ما
يقدم من الاطعمة وما يؤخر » للرازي ، و « ترتيب أكل الفواكه »
له ايضاً ، و « آداب الحمام » له ايضاً ، و « الزينة » لحنين بن اسحق ،
و « الهدايا والسنة فيها » لابراهيم الحربي ، و « والنبذ وشربه في
الولاثم » لقسطا بن لوقا .. الخ ، فقال صاحب الموشى :

« أعلم ان من كمال ادب الادباء ، وحسن تظرف الظرفاء
صبرهم على ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم ..
وانهم لا يداخلون احداً في حديثه ، ولا يتطلعون على قارىء في
كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مسروره
ولا يسألون عما ووري عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب

١ - آدم منز : ج ٢٠ ، ص ٢٠٣

٢ - ظهير الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٣

عنهم فهمه ... ألا ترى أنهم لا يتبصقون ولا يتشاءون ولا يستنثرون
ولا يتجشأون» (١) .

ووضعوا قوانين الظرف تفصيلاً كما وضعوها إجمالاً ،
فقوانين الظرف في الزي ، وفي التعطر ، وفي الشراب ، وما هو
ظرف في الرجال لا في النساء ، وما هو ظرف في النساء لا في
الرجال ، وهكذا (٢) .

وكان من مظاهر نعمة الأغنياء السكنى في السرايا صيفاً ، والثلج لشرب
الماء البارد يستحضرونه من الأماكن البعيدة كما استعملوا في البيوت المراوح
المبلولة بالماء من الخيش يحركها بعض الخدم . وكان هذا هو النظام
المتبع للتبريد في ذلك العصر . واتخذوا في بيوتهم الأماكن الواسعة
توضع فيها الأرائك يجلسون عليها ليلاً لسماع الغناء وللشراب
وللحديث اللذيذ .. وبالعصر هؤلاء المترفون في كل شيء في الحياة وفي
المات ، حتى أن قريباً من أقرباء سيف الدولة الحمداني مات ، فغسل
تسع مرات بأنواع مختلفة من العطور السائلة (٣) . وكفن أحد
أولاد الملوك سنة ٣٧٥ هـ في ستين ثوباً . (٤)

وقد كثر الرقيق في هذا العصر لدى هذه الطبقة كثرة

١ - الموشى للوشاء ، ص : ١٩٢

٢ - ظهر الإسلام ، ج : ١ ، ص : ١٠٧

٣ - ظهر الإسلام ، ج : ٢ ، ص : ٢١ - ٢٢

٤ - شوقي خيف : المذاهب الفنية في الشعر العربي ، ص : ١٧٩

بالغة ، وامتلاّت القصور به ، وكان له أثر كبير في الحياة الاجتماعية
فكثر نسل الجوّاري .. واختلطت الدماء ، حتى الخلفاء أنفسهم
كانوا في هذا العصر من نسل الجوّاري . وكان هذا الرقيق على
اختلاف أنواعه يقوم بأعمال كثيرة ، وتغلغل في الحياة الاجتماعية .
فمنهم من كانوا جنوداً وقواداً تستعين بهم الدولة في حروبها ، حتى
لقد بلغ بعضهم أرقى المناصب .. ومنهم من يقوم بالأعمال الصناعية
والتجارية لسادتهم ، ومنهم طبقة الخصيان ، وقد انتشروا في هذا
العصر انتشاراً كبيراً وكثر استخدامهم في بيوت الخلفاء والأغنياء
حرصاً على النساء ، ومنهم من نبغ في القيادة الحربية وبلغ بعضهم
منزلة عالية في الإشراف على القصور والحظوة عند الأمراء .

وكثر تعليم الجوّاري الغناء ، واتخذ أصحابهن لهن بيوتاً معدة
للسماع في الأحياء المختلفة ، وكثرت هذه البيوت في بغداد في هذا
العصر ، حتى قال أبو حيان التوحيدي في كتابه الامتاع والمؤانسة :
« وقد احصينا — ونحن جماعة في الكرخ — اربعمائة وستين جارية
في الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان
البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا
سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه ،
وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب الا اذا نشط
في وقت ، أو ثمل في حال ، أو خلع العذار في هوى قد حالفه

واضناه» (١). وهذه المحال العامة للمغنيات كان يتردد عليها الناس
 للسمع ولم يتخرج منها احد.. وكانوا يطربون فيها طرباً صاخباً، فمنهم
 من يشق إزاره، ومن يضرب بنفسه الأرض، ومن يحملق عينيه،
 ومن يستغيث ومن يحـو قل . وكانت هذه البيوت تسمى «بيوت
 القيان». والمقينة في اللغة، الأمة، مغنية كانت أو غير مغنية،
 ولكنها في العرف لا تطلق الا على الأمة المغنية. ومن هؤلاء القيان
 من كن يتاجرن بالعشق فيوقعن في أحبالهن الشباب الموسرين
 حتى يستنزفن مالهم ثم يلفظنهم (٢). وكان من كثرة بيوت القيان
 أن فرض عضد الدولة البويهـي على الراقصات والقحاب بفارس
 ضريبة كان يضمنها (٣). ولعل خير دليل على الاهتمام بالموسيقى
 والغناء في ذلك العصر، تلك الموسوعة الكبيرة التي ألفها أبو
 الفرج الاصفهاني — نديم الوزير المهـلي — في الاغاني والادب.
 أما الميل الى الغلمان فقد انتشر في هذا العصر انتشاراً
 كبيراً في الاوساط المستهترة حتى وعند بعض الادباء والعلماء ورجال
 الدولة؛ ونجد الكثير من أحاديث الغلمان في كتب الادب وتراجم
 الرجال والادباء. ومن يرجع الى يتيمة الدهر للثعالبي يجد المزيد
 من ذلك؛ ويبرز أثر هذا الامر بصورة واضحة في المقامات.

١ - الامتاع والمؤانسة، ج: ٢، ص: ١٨٣

٢ - ظاهر الاسلام، ج: ص: ١٢٤

٣ - ادم متر، ج: ٢، ص: ١٤١

ويحدثنا أبو حيان التوحيدي ، في الامتاع والمؤانسة ، أنه كان في بغداد خمسة وتسعون غلاماً جميلاً يغنون للناس ، وأنه كان بها صبي موصلي مغن « ملاً الدنيا عيارة وخسارة ، وافتضح به أصحاب البنسك والوقار ، وأصناف الناس من الصغار والكبار ، بوجهه الحسن ، وثغره المبتسم ، وحديثه الساحر ، وطرفه الفاتر ، وقده المديد ، ولفظه الحلو ، ودله الخلوب ، وتمنعه المطمع ، وإطاعه الممنع ، وتشكيكه في الوصل والهجر ، وخلطه الالباء بالاجابة ، ووقوفه بين لا ونعم ؛ إن صرحت له كنى ، وإن كنى له صرح ؛ يسرقك منك ، ويردك عليك ، يعرفك منكراً لك ، وينكرك عارفاً بك ، فحاله حالات ، وهدايتة ضلالات ، وهو فتنة الحاضر والبادي ومنية السائق والهادي » (١) . والسبب في شيوع هذه الفاحشة هو ان الامم في أدوار مدنيته اذا كانت المرأة فيها متأخرة بوجه الاجمال عن الرجل في الثقافة وحسن المعاشرة ، تشيع فيها عادة تفضيل منادمة الجميل المثقف على منادمة المرأة ، كما حدث عند اليونان والرومان قديماً وفي أوروبا خلال عصر النهضة ؛ ولم يكن الأمر على خلاف في ذلك المجتمع الاسلامي خلال القرنين الثالث والرابع حيث تراجعت المرأة عن مكاتها التي كانت لها في أيام

الاسلام الاولى وانسحبت من ميدان مشاركة الرجل في الحياة العامة (١).
وهناك لسعيد الخالدي — وهو أحد الشعراء الشقيقين المعروفين
باسم الخالدين — قصيدة دالية مشهورة يصف فيه غلامه بأنه
معشوقه وخازن داره ومدير ماله وناقد شعره وطاھيه ونديمه (٢).
ولعل ما ذكره فريدريك انجلز عن حالة المرأة في اليونان القديمة
ينطبق تمام الانطباق على حالة المرأة المسلمة الحرة في ذلك العصر.
قال فريدريك انجلز :

« لم تكن فتيات أثينا يتعلمن غير الغزل والنسيج والخياطة ،
وغير القليل من القراءة والكتابة . فقد كن سجينات ، اذا صح
القول ، ولا يعاشرن إلا النساء الأخريات . فكان الحريم جزءاً
متميزاً من البيت ، في الطابق العلوي او في المؤخرة ؛ فلا يصل اليه
الرجال ، وخصوصاً الغرباء ، بسهولة وتلتجىء النساء اليه عند
زيارة الذكور للبيت . ولم يكن ليخرجن الا مصحوبات باحدى
الجواري ، وكن في البيت يخضعن لمراقبة شديدة . . . واذا وضعنا
إنجاب الاطفال جانباً ، فان المرأة لم تكن في نظر الرجل الاثيني الا
الخادمة الرئيسية . لقد كان للرجل هواياته الرياضية ومناقشاته العامة ،
أما المرأة فانها كانت محرومة من هذه الاشياء . وعدا عن ذلك

(١) - راجع الجزء الثالث من كتاب «المرأة العربية في جاهليتها واسلامها»

لعبد الله عفيفي والجزء الاول من ضحى الاسلام لأحمد أمين ص : ١٠١

(٢) - ظهر الاسلام ، ج : ١ ص : ١٣٩

فقد كان تحت تصرف الرجل ، في أغلب الاحيان ، نساء رقيقات ،
وكان البغاء منتشراً انتشاراً كبيراً ومسموحاً به من قبل الدولة .
وعلى أساس هذا البغاء تطورت سجوناً أو لئك النساء اليونانيات اللواتي
ارتفعن عالياً ، بفضل الثقافة وتربية الذوق الفني ، فوق المستوى
العام للعالم النسوي القديم ... وقد أصبحت العائلة الأثينية ، مرور
الزمن المثال الذي يحتذىه لبقية الا يونيين فحسب ، بل إن جميع
يونانيي المناطق المجاورة والمستعمرات قد أخذوا شيئاً فشيئاً في
احتذائه في علاقاتهم المنزلية ... وكان الأزواج اليونانيون يجلسون
من إبداء حبهم لزوجاتهم ، ويتمتعون بجميع انواع العلاقات الغرامية
مع الفيان ؛ ولكن انحطاط النساء كان له أثره في انحطاط الرجال
حيث وصل بهم هذا الانحطاط الى الارتقاء في ممارسة
اللوادة البشعة والى تحقير أنفسهم عندما حقروا آلهتهم
بأسطورة غانيميد (١) .

وقد اشتهر من هذه الطبقة العليا جماعة كانوا أرسقراطيين
النسب . كانتسابهم الى علي وفاطمة أو كالبكريين والعمرين أو
انتسابهم الى بيوت اشتهرت بالمجد كانتسابهم الى الابناء ، ويعنون

١ - فريدريك انجلز : أصل العائلة والملكية الفردية والدولة ، ص : ٦٣ -

٦٤ فرنسي . اما أسطورة غانيميد فهي ان غانيميد هذا كان أميراً طروادياً
جلاً وابناً لتروس ولعروس اثناء كاليرووي . وقد وقع زوس كبير الآلهة في
حبه فاتخذ هيئة النسر واختطفه وجعله ساقياً للآلهة .

بالأبناء من كانوا من أبناء الجند الذين أسسوا الدولة العباسية (١) .
 وكان هناك أرسقراطيو المال أيضاً ، فقد أصبحت للمال قوة
 عظيمة ، حتى سحقت طاحونه الكبيرة كل قيمة أخرى ، وكل
 شيء عرض من أجل المال ، وبلغت وصمة حب المال والمكر
 لتحصيله أعلا طبقات الشعب (٢) . وقد تسلطت هذه الطبقة ،
 بطبيعة الحال ، على الحكم فكانت الحكومة أرسقراطية في ذلك
 الزمان ، حتى أدى الحال إلى ظهور جيل لكل طائفة من أصحاب المناصب ،
 فكان هناك وجوه الحضرة من أولاد الوزراء والكتاب والامراء
 والاشراف . وكان أولاد الوزراء هم الطبقة العليا بين أبناء العمال .
 وكانت المناصب شبه وراثية فقد ذكر أن الوزير ابن مقلة خلفه
 ابنه وهو في الثامنة عشرة ؛ وكذلك تولى أبو الفتح بن العميد
 الوزارة بعد أبيه وله من العمر إحدى وعشرون سنة ، وقد ولي
 الوزارة من آل خاقان أربعة وزراء في سبعين عاماً ، وكذلك
 تقلد أربعة من بني الفرات الوزارة في خمسين سنة (٣) . وخلصوا يد
 الخليفة من كل سلطة فقد احتفظ لنفسه ، كرئيس ديني أعلا للعالم
 الاسلامي ، بحق منح الألقاب . فكان يمنح الملوك والامراء والوزراء
 والقواد وكبراء هذه الطبقة ألقاباً مختلفة مثل : أمير الامراء ،

١ - ظهر الاسلام ، ج : ٢ ، ص : ٢١ - ٢٢

٢ - آدم متر ، ج : ٢ ، ص : ١٥٠

٣ - المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ١٤٩

وسيد الامراء ، وملك الملوك (شاهنشاه) ، وسيف الدولة وناصر الدولة ، وذو الكفایتين . الخ . وقد علق البيروني على هذه الالقاب الفخمة التي كانت الخلفاء يمنحونها قال : « لما لقب بنو العباس عمالهم ومحبيهم وأعداءهم على السواء بالالقب الفارغة المضافة الى الدولة — كعضد الدولة وسيف الدولة . الخ — ذهب ملكهم ، لأنهم تجاوزوا بها كل حد معقول ، واستمرت الحال على هذا المنوال ، حتى أخذت بطانتهم تطالب بما يميز بعضها عن بعض . ومنحهم الخلفاء ألقاباً مزدوجة ، فطالب غيرهم بمثلها وبذلوا المال في سبيلها ، فاستوجب الامر مرة أخرى منح ألقاب ثلاثية تضاف الى لقب شاهنشاه ، تميزاً لهم عن حاشية الخليفة . وأصبح الامر مخالفاً لكل ذوق سليم وقبيحاً جداً ، فاذا أراد احدهم ذكرها عجز عن ذلك قبل ان يبدأ ، ومن أراد كتابتها اضاع وقته ، ومن رغب في تعدادها فرما فاته وقت الصلاة » (١) .

ولغنى هذه الطبقة العليا وترفها كانت كل أنظار الناس موجهة الى الخلفاء والامراء والوزراء ؛ فالعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه الا في خدمتهم ؛ والشعراء إن أرادوا العيش لم يجدوه الا في مدحهم ؛ والتجار إن وقع شيء ثمين في يدهم من جوهر او جوار لا يجدون نفاقاً لها الا في قصورهم ، والصناع اذا أحسنوا

(١) — دونالدسون : عقيدة الشيعة ، ص : ٢٧٦

صناعة شيء فهم مقصدهم (١) .

أما الطبقة الوسطى فانها تتدرج بين حالة هذه الطبقة الغنية وحالة الطبقة الكبيرة الفقيرة التي ستتحدث عنها فيما يلي ، ولا مجال للتحدث عن ما يميز هذه الطبقة الوسطى لأنها أصبحت ضئيلة الأثر قليلة الافراد لتمرکز الثروات وتعدي القوي على الضعيف .
وأما الطبقة الفقيرة ، التي هي عامة الشعب بما فيهم العلماء الذين لم يتصلوا بالخلفاء والامراء ومن اليهم ، فقد كانت تعيش ، الى جانب هذا الغنى الواسع والنعيم المفرط ، في فقر مدقع وبؤس أسود وفقدان للقوت . فالعالم اذا لم يكن صاحب منصب ، ولم يجد ما يعيش منه ، اشتغل بنسخ الكتب ، كما حكى عن أبي زكريا يحيى ابن عدي المتوفى عام ٣٦٤ ، وكان من اكبر فلاسفة القرن الرابع ، ومذهبه مذهب النصاري اليمقويين ؛ فقد ذكر عنه انه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري ، وانه كان يكتب في اليوم واللييلة مائة ورقة .

وهذا ابو العباس الاصم (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) وهو من اكبر علماء خراسان ومحدثيها . . . فكان اذا ذهب الى المسجد للتحديث وجد السكة قد امتلأت بالناس ، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم الى مسجده . وكان لا يأخذ شيئاً على

التحديث ، وانما كان يورق ويأكل من كسب يده (١) .
وهذا عبد الوهاب البغدادي المالكي ، فقيه أديب شاعر له
المصنفات الرائعة في الفقه ، لم يكن في المالكيين أفقه منه في زمنه ،
ولما نزل معرة النعمان في رحلته اضاف له ابو العلاء المعري وقال فيه :
والمالكي ابن نصر زار في سفر
بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
اذا تفقّه احيا مالكا جدلاً

وينشر الملك الضليل ان شعرا
هذا كله تضيق به المعيشة في بغداد حتى لا يجد قوت يومه ،
ويخرج عنها طالباً للرزق ؛ ولما شيعه اكارها قال لهم : « ولو وجدت
بين ظهرانكم رغيّفين كل غداة ماعدلت عن بلدكم » ثم أنشأ يقول :
سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها وإني بشطي جانبها لعارف
ولكنها ضاقت علي بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخيلٍ كنت أهوى دنوه

وأخلاقه تنأى به وتخالف
فلما وصل الى مصر ، مات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها
فأكلها ، فزعموا انه قال وهو يتقلب : « لا إله إلا الله ، اذا عشنا
متنا » .

١ - المرجع السابق ، ص : ٣٠٦

وهذا أبو حيان التوحيدى البغدادي ، وهو ماهو في علمه
الواسع وأدبه الفياض ، وفلسفته ، وبلاغته ، وتصوفه . . وتأليفه
الكثيرة . . يقول محدثاً عن نفسه : « ولقد اضطررت بينهم بعد
العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة الى أكل الخضر في الصحراء ،
والى التكلف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين
والمروءة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، والى مالا يحسن بالحر
ان يرسمه بالقلم ويطرح في قلب صاحبه الأثم » . ولما أعيته الحيل
تحوّل طلبه وملقه وريأؤه ونفاقه الى غيظ من الناس وحقد عليهم ،
فأحرق في آخر أيامه كتبه وقال : « إني جمعت أكثرها للناس
ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولما الجاه عندهم ، فحرمتم
ذلك كله » (١) .

وقد ألف أحد الظرفاء كتاباً سماه : « الفلاكة والمفلوكين »
أي الفقر والفقراء ، حكى فيه أمثلة لكثير من العلماء الذين
أصيبوا بالفقر . من ذلك ما حكاه عن الأديب التبريزي الأديب
المشهور من أنه اراد علماً يشرح له كتاباً معجماً فوصف له أبو
العلاء المعري ، وكان بعيداً عنه ، فحمل الكتاب في خرج على ظهره .
ومشى طويلاً حتى بلغ العرق الكتاب وأتلفه . . . ووجدت أشعار
كثيرة في هذا العصر من جراء هذا يذكر فيها أن الفقر يلزم
العقل ، والغنى يلزم الجهل ، مثل الذي يقول :

١ - ظهر الاسلام ، ج : ١ ، ص : ١١١

إني رأيت الدهر في حكمه بمنح حظ العاقل الجاهلا
وما أراني نائلاً ثروة كأنه يحسبني عاقلاً (١).
وجاء في مقامات بديع الزمان الهمداني على لسان أبي الفتح
الاسكندري :

الذنب للأيام لالي فاعتب على صرف الليالي
بالحق أدركت المني ورفلت في حبل الجمال (٢).
كما قيل شعر كثير في شكوى الزمان وسوء الحال ودم
الدنيا مثل قول المعري :

خسبت يا أمنا الدنيا فأف لنا
بنو الخسيسة أو باش أخساء
إذا تعطفت يوماً كنت قاسية
وإن نظرت بعين فهي شوساء

وقول ابن لنكك البصري :
يا زماناً ألبس الأحرار ذلاً ومهانة
لست عندي بزمان إنما أنت زمانة
كيف ترجو منك خيراً والاعلا فيك مهانة
أجنون ما نراه منك يبدو أم مجانة
ويقول أبو حيان التوحيدي في كتابه المقابسات :

١ - ظهر الاسلام ، ج : ٢ ، ص : ٨
٢ - مقامات الهمداني ، طبعة بيروت ، ص : ١٠٢

ه وأواصل هذا الحديث بحديث آخر دفعنا اليه في هذه الايام . .
شاهدنا شيخاً من أهل العلم ساءت حاله وضاق رزقه واشتد نفور
الناس عنه ، ومقت معارفه له ، فلما توالى هذا عليه دخل يوماً منزله
ومد جبلاً الى سقف البيت واختنق به ، وكانت نفسه في ذلك .
فلما عرفنا حاله جزعنا وتوجعنا وتناقلنا حديثه وتصرفنا فيه كل
متصرف ، (١) .

كانت المدن خلال القرون الثلاثة الاولى قد غصت بالناس ،
وخاصة بالارقاء الذين كانوا يتخلصون من الرق لاسباب عديدة .
ولما زالت الروابط الاجتماعية القديمة على النحو الذي أسلفنا ،
أصبح هؤلاء الموالى والعتقاء وأحفادهم طبقة كبيرة مهانة هائمة على
وجهها في المجتمع لا تملك شيئاً ؛ هذا بالإضافة الى ان سائر ولايات
الاسلام كانت في القرن الرابع غاصة بالعبيد الابق ؛ وكان من أول
ما يؤمر به ولاية النواحي في كتب توليتهم أن يقبضوا على العبيد
الآبقين ويحبسوهم ويساموهم لمواليهم ان استطاعوا (٢) . فكانت
المجاعات تفتك بالعدد الكثير من هؤلاء الفقراء المعدمين الهائمين
بسبب الاحتكار وقبض الناس أيديهم عن الفلح في الاكثر بسبب
ما يقع من العدوان في الاموال والجبايات أو الفتن الواقعة في
انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة (٣) .

١ - المقابسات ، ص : ٢١٩

٢ - آدم متر ، ج ١ ، ص : ٢٧٩

٣ - ابن خلدون : المقدمة ، ص : ٣٠٢

ففي سنة ٣٠٧ هـ ضمن أحمد وزير المقتدر ، حامد بن
العباس ، جباية السواد والاهواز وأصبهان بزيادة أربع مائة ألف
دينار عما هو عليه معتاد جبايتها في السنين السابقة ، فاحتكر
الحبوب وارتفعت أسعار الدقيق والخبز . فتجمع الناس وقوم من
أماثل العامة فتظلموا من زيادة السعر وضجوا في وجه الوزير الثاني
علي بن عيسى لما ركب . ثم نهب العامة دكاكين الجماعة من الدقاكين
بيغداد ثم اجتمعوا الى باب السلطان فضجوا . فتقدم المقتدر بأن
يكتب الى حامد بأن يبادر الى الحضور — من النواحي — وينظر
في أمر الاسعار فيزيل التربص ببيع الغلات لتنحط الاسعار . .
وتحرك الجند بعد ذلك اليوم في دار السلطان وضجوا لارتفاع
السعر وتحركت العامة في المساجد الجامعة بيغداد وكسروا المنابر
وقطعوا الصلاة بعد الركعة الاولى واستلبوا الثياب ورموا بالآجر
وكثرت الجراحات واجتمع منهم في المسجد الجامع الذي في دار
السلطان عدد كثير على نصر الحاجب فوثبوا عليه ورجموه بالآجر
ثم صاروا في ذلك اليوم الى دار حامد بن العباس
فأخرج اليهم غلمانهم فرموا بالآجر والنشاب ، وقتل
خلق من العامة . ووجه حامد جماعة من غلمانهم . . فدخلوا المسجد
الجامع بالجانب الغربي على دوابهم فقتلوا جماعة ، وقتل أيضاً من
الجند عدة وبات الناس على صورة قبيحة من الخوف على أنفسهم
وأموالهم وحرهم . وضعف صاحب الشرطة عن مقاومتهم لكثرة

من تجمع من العامة . فلما أصبحوا صار من العامة عدد كثير إلى
الجسور فأحرقوها وفتحوا السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة
ودار غيره . فأنفذ المقتدر جماعة من الغلمان الحجرية في شذات
عدة لمحاربة العامة ، وركب هارون بن غريب الخصال في جيش
عظيم إلى باب الطاق فأحرق مواضع وتهارب العامة من بين يديه
إلى المسجد الجامع بباب الطاق ، ووكل هارون بباب المسجد وقبض
على جميع من وجد فيه ، ولم يفرق بين المستور والعيار ، وحملهم
إلى مجلس الشرطة ، فضرب بعضهم بالسوط وبعضهم بالدرية وقطع
أيدي قوم عرفوا بالافساد . ثم ركب يانس الموقفي في اليوم التالي
فسكن الناس ونادى فيهم وزالت الفتنة . ثم ركب حامد في طيارة
يريد دار السلطان ، فقصدته العامة ورجموه بالآجر ، فأمر المقتدر
شقيقاً المقتدر بالركوب لتسكين العامة ، فركب وسار في
الجانب الغربي ، وفيه كانت الفتنة ، فسكن الناس
ثم قبض على جماعة من العامة فضرب بعضهم بالسوط
وقطعت أيدي قوم عرفوا بالرجم . وضجت الرجال المصافية في دار
السلطان من زيادة السعر فتقدم المقتدر بالله بفتح الدكاكين والبيوت
التي لحامد وللسيدة (١) والأمراء أولاد الخليفة والوجوه من أهل
الدولة ، وبيع الخنطة بنقصان خمسة دنانير في الكر وبيع الشعر
بحسب ذلك ، وبطالبة النجار والباعة أن يبيعوا بمثل هذا السعر .

(١) - أي والدة الخليفة .

فرضي العامة وسكنوا وانحل السعر . (١)

وفي سنة ٣٣٩ هـ التي قتل فيها بحكم (امير الامراء في عهد الخليفين الراضي والمتقي) اشتد الغلاء ببغداد وبلغ الكرم من الدقيق مائة وثلاثين ديناراً ، وأكل الناس الحشيش ، وكثر الموت حتى كان يدفن في قبر واحد جماعة من غير غسل ولا صلاة ، وظهر من قوم ديانة وصداقة وتكفين ، ومن آخرين فجور وعصب وهم الاكثر (٢) . وفي سنة ٣٣٤ هـ افراط الغلاء حتى عدم الناس الخبز البتة ، وأكل الناس الموتى والحشيش . . والجيف ، وكانت الدابة اذا راثت اجتمع الناس على الروث جماعة ففتشوه ، ولقطوا ما يجدون فيه من شعير واكلوه ، وكان يؤخذ بزر قطونا ويضرب بالماء ويبسط على طابق حديد ويجعل على النار حتى يقب ويؤكل ؛ ولحق الناس من ذلك في احشائهم أورام ومات أكثرهم ، ومن بقي كان في صورة الموتى . وكان الرجل والمرأة والصبي يقف على ظهر الطريق وهو تالف ضراً فيصبح : الجوع ، الجوع ، الى ان يسقط ويموت ؛ وكان الانسان اذا وجد اليسير من الخبز ستره تحت ثيابه وإلا استلب منه ؛ والكثرة الموتى وانه لم يكن يلحق دفنهم ، كانت الكلاب تأكل لحومهم ، وخرج الضعفي الى البصرة خروجا مفراطا متتابعين لأكل التمر فتلّف أكثرهم في الطريق ، ومن وصل منهم مات بعد مديدة ؛

١ - تجارب الامم ، ج : ١ ، ص : ٧٣ - ٧٤ .

٢ - المرجق السابق ، ج : ٢ ، ص : ٨ .

ووجدت امرأة هاشمية قد سرقت صبياً فشوته وهو حي في
تنور فاكتت بعضه وظفر بها وهي تأكل البعض الباقي ، فضربت
عنقها ؛ وكانت الدور والعقارات تباع برغفان ويأخذ الدلال بحق
دلالة بعض ذلك الخبز، ووجدت امرأة أخرى تقتل الصبيان وتأكلهم
ثم فشا ذلك فقتلت عدة منهن (١) .

وجاء في رسالة لبديع الزمان الهمداني وجهها الى احمد
ذوي الشأن قوله : « ولا ازيد الشيخ علماً بهراة وأهلها ، إنه قد
شاهد أحوالهم ، وعرف ما عليهم وما لهم ، ولم يغب عن ثاقب
فطنته الا القليل . ولكني أخبره بما عرض لها ولهم : فيهم فشت
الامراض الحادة فخبطت عشواء وأفنت رجالاً ، ثم جد الغلاء ،
وفقد الطعام ، ووقع الموت العام ، فمن الناس من لم يطعم اسبوعاً
حتى هلك جوعاً ، ومنهم من تبلغ بالميتة الى يومنا هذا ، وهو ينتظر
نحيبه ، ليلحق صحبه . ومنهم من لا يجد القوت على كفه حتى يموت
والباقون أحياء كأنهم اموات ترعد فرائصهم من هذه البوائق .
وان هول السلطان أعظم وأطم ، وأمر المطالبات أكبر
وأهم .. » (٢) .

وقد استمرت المجاعات والابوة تفتك بالناس منذ ذلك
الحين حتى بلغ عدد سكان مدن العالم الاسلامي من الضالة والقلّة ما

١ - تجارب الامم ، ج : ٢ ، ص : ٩٥ - ٩٦

٢ - مارون عبود : بديع الزمان الهمداني ، ص : ٤٠

بلغه في القرن الماضي . ومن يود الاطلاع على اخبار تلك المجاعات والشدائد فما عليه الا الرجوع الى كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » (١) للمقرئ حيث أحصى المؤلف فيه المجاعات التي حدثت في مصر منذ أقدم العصور حتى سنة ٧٧٦ هـ .

وكان من سوء حالة هذه الطبقة الكبيرة المعدمة ان فشت في الناس أمور متناقضة وتبدت في حياتهم جميع المظاهر التي تنتج عادة من الفقر . وهذه الامور والمظاهر هي :

١ - انتشار الزهد ؛ فان كثيراً من الناس لما عز عليهم أن ينالوا ما يطلبون قللوا مطالبهم فزهدوا وتقصفوا وعلموا أنفسهم القناعة والكبت . فكثر الزهد من هذا الباب جرياً على قولهم : « اذا لم يكن ما تريد ، فأرد ما يكون » .

٢ - تفشي الحقد والحسد والكذب والخبث ، وانتشار الدجل والتخريف وتعلق الناس بالاسباب الموهومة في الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة : فتنجيم واعتقاد في الطوابع ، التي تسعد وتشقى ، وانصراف الى الكيمياء التي تقلب النحاس والقصدير ذهباً والا لتيجاء الى دعوات الاولياء لعل دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى ، وهذا الى الاعتقاد بالسحر والطلسمات والبحث عن الكنوز المخبوءة ونحو ذلك (٢) .

١ - نشرته مؤخراً دار « ابن الوليد » في حمص .

٢ - ظهر الإسلام ، ج : ١ ، ص : ١٢١ .

٣ - ما شاع في هذا العصر من لصوص سموا « الشطار » كانوا يقطعون الطريق على الناس ويفرضون إتاوات معينة على البيوت ، من لم يدفعها هوجم وأخذ ماله (١) .

وقد أخذ هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق في الظهور والازدياد منذ أن شرع نظام الرق في الانحلال والتفكك ، حيث تشرذم العتقاء والارقاء والآبقون ومارسوا اللصوصية للحصول على قوت يومهم . فيحدثنا البلاذري انه : « لم تزل سير وماوالدها مراعي لمواشي الاكراد وغيرهم ، وكانت مروجاً لدواب المهدي أمير المؤمنين وأغنামه ، وعليها مولى يقال له سليمان بن قيراط .. وشريك معه يقال له سلام الطيفوري ، وكان طيفور مولى أبي جعفر المنصور وهبه للمهدي . فلما كثرت الصعاليك والذعار وانتشروا بالجبل ، في خلافة المهدي أمير المؤمنين ، جعلوا هذه الناحية ملجأ لهم وحوزاً ، فكانوا يقطعون ويأوون اليها ولا يطلبون لانها حد همدان والدينور وأذربيجان . فكتب سليمان بن قيراط وشريكه الى المهدي يخبرهم وشكيا عرضهم لما في ايديهما من الدواب والاغنام . فوجه اليهم جيشاً عظيماً وكتب الى سليمان وسلام يأمرهما ببناء مدينة يأويان اليها واعوانهما ورعاتهما ويحصنان فيها الدواب والاغنام ممن خافاه عليها . فبنيا مدينة سير وحصناها واسكنها الناس . ثم ان الصعاليك كثروا في خلافة أمير المؤمنين الرشيد وشعثوا سير ،

١ - المرجع السابق ، ج ٢ ، ص : ١٠ - ١١

فأمر بمرمتها وتحصينها ورتب فيها ألف رجل ، (١) . ويحدثنا
 أيضاً : « أن الحجاج أتى بخلق من زط السند واصناف ممن بها من
 الامم معهم اهلهم واولادهم وجواميسهم فأسكنهم بأسافل كسكر .
 فغلبوا على البطيحة وتناسلوا بها . ثم انه ضوى (٢) اليهم قوم من
 أباق العبيد وموالي باهلة وخول (٣) محمد بن سليمان بن علي وغيرهم ،
 فشجعوهم على قطع الطريق ومبارزة السلطان بالمعصية ، وانما كانت
 غايتهم قبل ذلك ان يسألوا الشيء الطفيف ويصيبوا غرة من اهل
 السفينة فيتناولوا منها ما امكنهم اختلاسه . وكان الناس في بعض
 ايام المأمون قد تحاموا الاجتياز بهم وانقطع عن بغداد جميع ما كان
 يحمل اليها من البصرة في السفن فلما استخلف المعتصم بالله تجرد
 لهم ، وولى محاربهم رجلاً من اهل خراسان يقال له عجيف بن
 عنبثه ، وضم اليه من القواد والجند خلقاً ولم يمنعه شيئاً طلبه من
 الاموال . فرتب بين البطائح ومدينة السلام خيلاً مضمرة ملهوبة
 الاذئاب ، وكانت اخبار الزط تأتيه بمدينة السلام في ساعات من
 النهار او اول الليل ، وأمر عجيفاً فسكر عنهم الماء بالمؤن العظام
 حتى اخذوا فلم يشد منهم احد وقدم بهم الى مدينة السلام في
 الزواريق ، فجعل بعضهم بخاتقين وفرق سائرهم في عين زربة

١ - فتوح البلدان ، ص : ٣٠٧

٢ - ضوى : انضم

٣ - الخول : الموالي والخدم

والثغور» (١) ويقول بعض المؤرخين الحديثين ان النور هم احفاد هؤلاء الزط ، لان كلمة « زط » هي تعريب لكلمة « جت » الهندية ، ويطلق على النور في البلاد الاوربية اسم « gitane » . هذا ، وقد ذكر عبد القاهر البغدادي ان للجاحظ كتاباً اسمه « حيل اللصوص » ، فقال في لهجة متحملة : « واما كتبه المزخرفة فأصناف منها كتاب في حيل اللصوص . وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة » (٢) .

وبلغ من شأن هؤلاء اللصوص في القرن الرابع الهجري انه كانت تخرج اليهم الجيوش للقضاء عليهم فيظهرون عليها في بعض الاحيان ، فقد وجه عضد الدولة وزيره المطهر بن عبدالله الى البطيحة لاستئصال اللصوص منها ، فالتأت عليه الامر ، وخشي انخفاض منزلته عند عضد الدولة .. فاختار الموت على ذلك واخذ سكيناً فقطع بها شرايين ذراعه جميعاً وسال دمه حتى مات (٣) ويحدثنا المحسن التنوخي عن ابيه قال : « أنفذني ابو عبد الله البريدي من واسط برسالة الى ابي بكر بن رائق فلقيته في حدود دير العاقول .. وانشدت اريد واسطاً .. وفي بعض الطريق خرج علينا اللصوص في سفن عدة ونشاب وسلاح شاك ، وهم نحو مائة نفس كالمسكر

١ - فتوح البلدان ، ص : ٣٦٨ - ٣٦٩

٢ - الفرق بين الفرق ، ص : ١٠٦

٣ - آدم متر ، ج ١ ، ص : ١٥٤

العظيم ، (١) .

وكان من هؤلاء اللصوص قوم يسمون بالعيارين يتخذون
لهم لباساً خاصاً ويقول فيهم الشاعر :
خرّجت هذه الحروب رجالاً

لا لقحطان ولا لنزار

معشر في جواشن المصر يعدو

ن الى الحرب كالليوث الضواري

ليس يدرون ما الفرار اذ الأب

طال عاروا في القنا للفرار

واحد منهم يشد على

فبين عريان ماله من ازار

ويقول الفتى اذا طعن الطعنة خذها من الفتى العيار

ويقول ابن الأثير : ان العيارين ظهروا في سائر المدن

الاسلامية وعظم شأنهم ، وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من ارباب

الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم ؛ وقد يسمون أحياناً

شطاراً ، وكانوا يمتازون ايضاً بلبس خاصة (٢) .

وفي سنة ٣٣١ هـ استطاع اللص ابن حمدي ان ينهب

أموال اهل بغداد ، وكان قد أعين السلطان امره .. ومضى على

(١) المحسن التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص : ١١٨

(٢) ظهير الاسلام ، ج ٢ ، ص : ٣٢

الناس في ايام ابن حمدي وقت تحارسوا فيه بالبوقات في الليل وامتنع
عليهم النوم خوفاً من كبسات هذا اللص وأصحابه ، وخلت المنازل
ببغداد من اهلها وصاروا يطلبون من يسكن الدار باجرة يعطاها
ليحفظها . وأغلقت عدة حمامات وتمطلت اسواق ومساجد (١) .
وكان اهل بغداد ينامون في ليل الصيف على سطوح البيوت . وفي
صيف سنة ٣٠٤ هـ تفرغت العامة من حيوان كانوا يسمونه الزبزب
ذكروا انهم يرونه في الليل على سطوحهم وانه يأكل أطفالهم .
قالوا : وربما قطع يد الانسان اذا كان نائماً او ثدي المرأة
فيأكله . وكانوا يتحارسون طول الليل ولا ينامون ويتزاعقون
ويضربون الطسوت والصواني والهواوين ليفزعوه ؛ وارتجت بغداد
لذلك حتى اخذ السلطان حيواناً غريباً أبلق . كأنه من كلاب الماء
وقال : هو الزبزب ، وانه صيد . فصلب على نقنق عند الجسر
الأعلى وبقي مصلوباً الى ان مات . فلم يغن ذلك ، الى ان
انبسط القمر وتبين للناس انه لا حقيقة لما توهموه فأمسكوا .
الا ان اللصوص وجدوا فرصتهم بتشغل الناس في سطوحهم
فكثرت النقبوب (٢) . وما كان الزبزب في الأصل حيواناً
بل وهماً نشأ من وجود اللصوص (٣) . وفي المقامة الرصافية لبديع

(١) آدم متر ، ج ١ ، ص : ١٢

(٢) تجارب الامم ، ج ١ ، ص : ٣٩

(٣) آدم متر ، ج ٢ ، ص : ١٧٥

الزمان الحمداني ان عيسى بن هشام خرج من الرصافة ، يريد دار
الخلافة .. فقال « الى مسجد قد اخذ من كل حسن سره ، وفيه
جماعة يتأملون سقوفه ، ويتذاكرون وقوفه ، وأداهم عجز الحديث
الى ذكر اللصوص وحيلهم والطاردين وعملهم » فذكروا حيلاً
تجاوز السبعين حيلة ، فيها القبيح وفيها الطريف ، مما يدلنا على
انتشار اللصوصية وتفشي اللصوص في طرق السلب والسرقة
والاحتيال .

٤ - وآخر مظاهر فقر هذه الطبقة يقارب المظهر السابق
ويتشعب هو واياه من اصل واحد وذلك ان جماعة اتخذوا طريقة
في كسب العيش تقوم على التكدّي والاستجداء بأساليب خاصة .
وستحدث عنهم في الفصل التالي من هذا الكتاب .

أهل الكدية أبطال المقامات

كانت من شدة فقر هذه الطبقة وكثرة الهائمين على وجوههم من أفرادها ان شاعت طريقة فريدة في دفع الجوع والتحايل على كسب العيش ، وذلك ان جماعة اتخذوا وسيلةهم في ذلك التسول والاستجداء عن طريق الأدب احياناً ، والنصب والاحتيايل احياناً أخرى ؛ ووجدت طائفة كبيرة من هذا القبيل متحدة في روحها وفي نزعتها ، وفي اساليب حياتها وفي انها رحالة دائمة الرحلة والمهاجرة ، وانها متحاملة من كل مبدأ اخلاقي ، وقد اطلق على افراد هذه الطائفة اسم « أهل الكدية » او « الساسانيين » او « بني ساسان » .

وقد رووا في ساسان هذ أقوالاً وأساطير مختلفة ؛ فمن قائل انه ساسان بن اسفنديار ، كان من حديثه انه لما حضرت أباه الوفاة فوض أمر الحكم الى ابنته ، فأنف ساسان من ذلك ، واشترى غنماً وجعل يرعاها ، وعير بانه راعي الغنم ، فقيل : ساسان الراعي ، وساسان الكردي ؛ ثم نسب اليه كل من تكدى او تسول فيقال : فلان من بني ساسان ، وقيل كان ساسان ملكاً من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس ، ونهب كل ما كان له ، واستولى على ملكه فصار رجلاً فقيراً يتردد في الاحياء ويستعطي فضرب به المثل . وقيل انه كان رجلاً فقيراً بصيراً في استعطاء الناس والاحتيايل

فنسبوا اليه .

وكان اهل الكدية هؤلاء طائفة يتجول أفرادها في البلاد يستجدون ويحتالون وكان عند بعضهم مقدرة أدبية يحتالون بها على الناس . . وعند بعضهم دهاء وحيل لإبتزاز المال (١) وقد أصبحت حيلهم من الشهرة بحيث صارت من موضوعات العلم . فقد كتب حاجي خليفة فصلاً تحت عنوان : « علم الحيل الساسانية » قال فيه :

« هو علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب النافع وتحصيل الاموال . والذي يباشره يتزيا في كل بلدة بزي يناسب تلك البلدة بان يعتقد اهلها في اصحاب ذلك الزي . فتارة يختارون زي الوعاظ ، الى غير ذلك . ثم انهم يحتالون في خداع العوام بامور تعجز العقول عن ضبطها » (٢) .

وكان عندهم كلمات اصطلاحية تطلق على كل نوع من انواع الاحتيال التي تحيدها هذه الطائفة . وقد اوضح لنا الحريري هذه الحرفة في مقامته المسماة بالمقامة الساسانية ، وذلك ان أبا زيد السروجي شعر بدنو أجله فأحضر ابنه وأوصاه بقوله :

« يا بني ! قد دنا ارتحالي من الفناء ، واكتحالي بمروءة الفناء ، وانت محمد الله ولي عهدي وكبش الكتيبة الساسانية من بعدي . . فاحفظ وصيتي ، وجانب معصيتي . يا بني ! إني جربت حقائق الامور ،

١ - ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ١٤٢

٢ - كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٤٥٥ - ٤٥٦

وبلوت تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنسبه ، لا بنسبه ، والفحص
عن مكسبه ، لا عن حـسبه ، وكنت سمعت ان المعاش إماره
وتجاره ، وزراعه وصناعه ، فمارست هذه الأربع ، لانظر ايها
أوفق وأنفع ، فما احدثت منها معيشه ، ولا استرعدت فيها عيشه .
أما فرص الولايات ، وخلص الامارات ، فكأضغاث الاحلام ،
والقيء (١) المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصه بمرارة الفطام (٢) .
وأما بضائع التجارات ، فعرضه المخاطر ، وطعمه للغارات ، وما
اشبهها بالطيور الطيارات . وأما اتخاذ الضياع ، والتصدي للازدراع ،
فمنهكة الاعراض ، وقيود عاتقة عن الارتكاض ، وقلمها خلا ربها
عن إذلال ، أورزق روح بال . وأما حرف اولي الصناعات ، فقير
فاضلة عن الاقوات ، ولا نافقة في جميع الاوقات ، ومعظمها معصوب
يشبیه الحياة (٣) ، ولم أر ما هو بارد المغم ، لذيد المطعم ، وافي
المكسب ، صافي المشرّب ، الا الحرفة التي وضع ساسان أساسها ،
ونوع اجناسها ، واضرم في الخافقين نارها ، واوضح لبني غبراء (٤)
منارها... اذ كانت المتجر الذي لايبور ، والمنهل الذي لايفور ،
والمصباح الذي يعشو اليه الجمهور ، ويستصبح به العمي والعور ،

١ - القبيء : الضل

٢ - من المثل القائل بأن الامارة جلوة الرضاع مرة الفطام

٣ - أي مرتبط بشباب الحياة فقط .

٤ - أي للفقراء والمحتاجين ، سموا بذلك لاستفراشهم وجه الغبراء ،

وهي الارض ، من غير غطاء ولا وطاء .

وكان أهلها أعز قبيل ، واسعد جيل ، لا يرهبهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ، ولا يخشون حمة لاسع ، ولا يدينون لدان ولا شاسع (١) ، ولا يرهبون غم برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد ، انديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة . . أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون اوطاناً ، ولا يتقون سلطاناً . . فقال له ابنه : يا أبت لقد صدقت فيما نطقت ، ولكنك رتقت ومافتقت ، فبين لي كيف اقتطف ، ومن اين تؤكل الكتف ؟ فقال : يا بني : إن الارتكاض بابها ، والنشاط جلبابها ، والفطنة مصباحها ، والفحة سلاحها ، فكن أجول من قطرب (٢) ، واسرى من جندب (٣) ، وأنشط من ظبي مقعر ، واسلط من ذئب متمر . . وانتجع كل روض ، وألق دلوك الى كل حوض ، ولا تسأم الطلب ، ولا تمل المدأب ، فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان : من طلب جلب ، ومن جال نال ؛ واياك والكسل ، فإنه عنوان النحوس ، ولبوس ذوي البوس . . وما اشتار العسل ، من اختار الكسل ، ولا ملاء الراحة ، من استوطأ الراحة ، وعليك بالاقدام ، ولو على الضرغام ، فان جرأة الجنان ، تنطق اللسان ، وتطلق العنان ، وبها تدرك

١ - الشاسع : البعيد

٢ - القطرب : دويبة تخرج من جحرها للرعي تجول الليل كله لاتنام ولا تستريح النهار .

٣ - الجندب : ضرب من الجراد .

الخطوة ، وتملك الثروة ، كما ان الخور صنو الكسل ، وسبب
 الفشل ، ومبطأة للعمل ، ومخيبة للأمل ، ولهذا قيل في المثل : من
 جسر أيسر ، ومن هاب خاب . ثم ابرز يابني في بكور ابي زاجر (١)
 وجراءة ابي الحارث (٢) . . وحرص ابي عقبة (٣) ،
 ونشاط ابي وثاب (٤) ، ومكر ابي الحصين ، وصبر ابي أيوب (٥) ،
 وتلطف ابي غزوان (٦) ، وتلون ابي براقش (٧) ، وحيلة قصير ،
 ودهاء عمرو ، ولطف الشعبي ، واحتمال الاحنف ، وفطنة إياس ،
 ومجانة ابي نواس ، وطمع اشعب ، وعارضة ابي العيناء ، واخلب
 بصوغ اللسان ، واخدع بسحر البيان . . واشحذ بصيرتك للعيافة ،
 وأنعم نظرك للقيافة ، فان من صدق توسمه ، طال تبسمه ، ومن
 أخطأت فراسته ، ابطأت فريسته . . وعظمت وقع الحقير ، واشكر
 على النكير (٨) ، ولا تقنط عند الرد ، ولا تستبعد رشح الصلد ،

١ - ابو زاجر : كنية الغراب .

٢ - ابو الحارث : كنية الاسد .

٣ - ابو عقبة : كنية الحنزير .

٤ - ابو وثاب : كنية الطيبي .

٥ - ابو أيوب : كنية الجمل .

٦ - ابو غزوان : كنية اهر ، ومن تلطفه انه عاشر الناس وصار

من جملتهم .

٧ - ابو براقش : كنية طائر يشبه القنفذ أعلى ريشه اغبر ، واوسطه

أحمر ، وأسفله أسود اذا نفش ريشه تلون .

٨ - النكير : النقرة في ظهر النواة .

ولا تيأس من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ؛
واذا خيرت بين ذرة منقودة ، وذرة موعودة ، فقل الى النقدة ،
وفضل اليوم على الغد ، فان للتأخير آفات ، وللعزائم بدوات .. وعليك
بصبر أولي العزم ، ورفق ذوي الحزم ... ومضى نيا بك بلد ،
او نيا بك فيه كمد ، فبت منه املك ، واسرح عنه جملك ، ولا
تستقلن الرحلة ، ولا تكرهن النقلة ، فان اعلام شريعتنا ، واشياخ
عشيرتنا أجمعوا على ان الحركة بركة .. (١)

أخذت هذه الطائفة في الظهور والتميز في المجتمع منذ ايام
الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) . فقد ذكر البغدادي ان الجاحظ
كتاباً في « حيل المكدين » (٢) وهو من كتبه التي لم تصل اليها .
ولكن البيهقي احتفظ في كتابه « المحاسن والمساوي » بفصل طريف
من هذا العمل جاء فيه :

« قال الجاحظ : سمعت شيخاً من المكدين وقد التقى
بشاب منهم قريب العهد بالصناعة ، فسأله الشيخ عن حاله ، فقال :
لعن الله الكدية ولعن اصحابها من صناعة ما أخسها وأقلها وانها ،
مأملت ، تخلق الوجه وتضع من الرجال ، وهل رأيت مكدياً
أفلح ؟ قال : فرأيت الشيخ قد غضب والتفت اليه فقال : يا هذا ،
أقلل من الكلام فقد أكثرت ، مثلك لا يفلح لانك محروم ولم

١ - مقامات الحريري ، ص : ٥٦٩ - ٥٨٠

٢ - عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص : ١٠٦

تستحكم بعد ، وان للكدية رجالاً فمالك ولهذا الكلام ؟! ثم التفت
فقال : اسمعوا بالله ، بحيثنا كل نبطي قرنان ، وكل حائك صفعان ،
وكل ضراط كشحان ، يتكلم سبعاً في ثمان . اذا لم يصب احدهم
يوماً شيئاً ، ثلب الصناعة ووقع فيها ؛ او ما علمت ان الكدية صناعة
شريفة وهي محبة لذينة ، صاحبها في نعيم لا ينفد ، فهو على بريد
الدنيا ومساحة الارض ، وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق
والمغرب ، حيثما حل لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء ، ويأخذ
أطايب كل بلدة ، فهو أيام النرسيان والهيريون بالكوفة ، ووقت
الشبوط وقصب السكر بالبصرة ، ووقت البرني والازاد والرازي
والرمان المرمر ببغداد ، وأيام التين والجوز والرطب بمحوان ، ووقت
اللوز والسختيان والطبرزد بالجبل ، يأكل طيبات الارض ، فهو
رخي البال ، حسن الحال ، لا يغم لأهل ولا مال ، ولا دار ولا
عقار ، حيثما حل فعلفه طيب ؛ أما والله لقد رأيته وقد دخلت
بعض بلدان الجبل ووقفت في مسجد لها الأعظم وعلي فوطة قد انتزرت
بها وتعممت بجبل من ليف ، وييدي عكازة من خشب الدفلى ، وقد
اجتمع الي عالم من الناس كآتي الحجاج بن يوسف على منبره ، وانا
اقول : يا قوم ! رجل من اهل الشام ، ثم من بلد يقال لها المصيصة
من ابناء الغزاة والمرا بطين في سبيل الله ، من ابناء الركضة وحرس
الاسلام ، غزوت مـسع والذي اربع عشرة غزوة ، سبعاً في البحر ،
وسبعاً في البر ، وغزوت مع الأرمني ، قولوا : رحم الله أبا الحسن ،

ومع عمر بن عبيد الله ، قولوا : رحم الله أبا حفص ، وغزوت مع
البطال بن الحسين والرزداق بن مدرك وحمدان بن أبي قطيفة ؛ وآخر
ما غزوت مع يازمان الخادم ؛ ودخلت قسطنطينية وصليت في مسجد
مسلمة بن عبد الملك ، من سمع باسمي فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا
أعرفه نفسي ، أنا ابن الغزبل بن الركان المصيبي المعروف المشهور
في جميع الثغور ، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سد من أسداد
الاسلام ، نزل الملك على باب طرسوس ، فقتل الدراري ، وسبي
النساء ، وأخذ لنا ابناً ، وحملنا الى بلاد الروم ، فخرجت هارباً
على وجهي ومعني كتب من التجار ، فقُطِع علي ، وقد استجرت
بالله ثم بكم ، فان رأيتم ان تردوا ركناً من اركان الاسلام الى وطنه
وبلده ؟ - فوالله ما أتممت الكلام حتى انتهت علي الدراهم من كل
جانب ، وانصرفت ومعني اكثر من مائة درهم . فوثب اليه الشاب
وقبّل رأسه وقال : انت والله معلم الخير ، فجزاك الله عن اخوانك
خيراً ، (١) .

ولم يقتصر الجاحظ على هذا في تصوير هذه الطائفة ، بل
تناولها ايضاً في كتابه « البخلاء » في فصل خاص عنوانه « حديث
خالد بن يزيد » حيث أورد نادرة من نوادر بخل هذا الرجل كما
أورد وصيته لابنه عندما حضرته الوفاة . وهذه الوصية تجمع بمصطلحات

١ - المحاسن والمساوي ، ج ٢ ، ص : ٢١٧ - ٢١٨ ، مطبعة السعادة ،

أهل الكدية التي شرح الجاحظ نفسه بعضها في آخر الفصل . ونحن
سنجتزئ هنا بعض هذا الفصل ونشرح في الحاشية ما يرد فيه من
اصطلاحات بالاستناد الى شروح الجاحظ والى شروح الاستاذة
الحاجري محقق كتاب « البخلاء » ، قال الجاحظ :

« وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة - هو خالويه المكدي -
وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها
احد . وكان ينزل في شق بني تميم ، فلم يعرفوه . فوقف عليه ذات
يوم سائل ، وهو في مجلس من مجالسهم ، فأدخل يده في الكيس
ليخرج فلساً - وفلوس البصرة - كبار - فغلط بدرهم بغلي ، فلم يظن
حتى وضعه في يد السائل . فلما فطن استرده ، وأعطاه الفلاس . فقيل
له : هذا لا نظنه يحل ، وهو بعد قبيح . قال : قبيح عند من ؟ اني لم
اجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم ، ليس هذا من مساكين
الدرهم ، هذا من مساكين الفلوس ، والله ما أعرفه الا بالفراصة .
« قالوا : وإنك لتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم
وأنا كنت كاجار (١) في حادثة سني ؟ ثم لم يبق في الارض

١ - كاجار : كلمة كانت تطلق على بعض القبائل التركية الرحالة ، من
المصدر التركي « قاجق » بمعنى الحرب ، وان هذه الكلمة ليست الا صورة من
كلمة « غجر » التي تطلق الآن على النور كاسم من اسمائهم الكثيرة .

مخطراني (١) ولا مستعرض (٢) إلا ففته ، ولا شحاذ ولا كاغاني (٣)
ولابانوان (٤) ولا قرسي (٥) ولا عواء (٦) ولا مشعب (٧)

١ - المخطراني : الذي يأتبك في زبي ناسك ، ويريك ان بابك الحرمي
قد قور لسانه من أصله ، لانه كان مؤذناً هناك . ثم يفتح فاه كما يصنع من
يشامب ، فلا ترى له لساناً ألبتة ، ولسانه في الحقيقة كالسان الثور . ويقول
الجاحظ : وأنا احد من خدع بذلك . ولا بد للمخطراني ان يكون معه واحد
يعبر عنه ، او لوح او قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته .

٢ - المستعرض : الذي يعارضك وهو ذو هيئة ، وفي ثياب صالحة وكأنه
لقد مات من الحياء ويخاف ان يراه من يعرفه .

٣ - الكاغاني : الذي يتجذع ويتصارع ويزيد حتى لا يشك انه مجنون
لادواء له لشدة ما ينزل بنفسه .

٤ - البانوان : الذي يقف على الباب ويسل الغلق ويقول : بانوا .
وتفسير ذلك بالعربية : يامولاي .

٥ - القرسي : الذي يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً ويبت على ذاك
ليلة ، فاذا تورم واختنق الدم ، مسحه بشيء من صابون ودم الاخوين ، وقطر
عليه شيئاً من سمن ، وأطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه
ان به الأكلة ، او بلية شبه الأكلة .

٦ - العواء : الذي يسأل بين المغرب والعشاء ، وربما طرب ، ان كان
له صوت حسن وحلق شجي .

٧ - المشعب : الذي يحتمل للصبي حين يولد بان يعميه او يعطل احد
اعضائه ليسأل اهله به الناس . وربما جاءت به امه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغرم
الثقيل ، لانه يصير حينئذ عقدة وغلة . فاما ان يكتبها به واما ان يكرها
بكرام معلوم ، وربما اكروا اولادهم ممن يمضي الى افريقية ، فيسأل بهم
الطريق أجمع بالمال العظيم . فان كان ثقة مائناً ، والا أقام بالاولاد والاجرة
كفيلاً .

ولا فلور (١) ولا مزيدي (٢) ولا إسـطـيل (٣) الا وقد
كان تحت يدي . ولقد أكلت الزكوري (٤) ثلاثين سنة . ولم يبق
في الارض كني (٥) ولا مكـد الا وقد اخذت العرافة عليه ...
وانما أراد بهذا ان يؤثـسـهم من ماله ، حين عرف حرصهم وجشعهم
وسوء جوارهم ؛ وكان قاصاً متكلماً بليغاً داهياً ، وكان ابو سليمان
الأعور وأبو سعيد المدائني القاصان من غلمانه ، وهو الذي قال لابنه
عند موته :

هـ اني قد تركت لك ماتاً كله ان حفظته ، ومالا تأكله ان
ضيـعـته . ولما ورثتك من العرف الصالح ، وأشهدتك من صواب
التدبير ، وعودتك من عيش المقتصدین ، خير لك من هذا المال .
ولو دفعت اليك آلة لحفظ المال عليك بكل حيلة ، ثم لم يكن لك

١ - الفلور : الذي يحتمل خصيته حتى يريك ان بها سرطاناً او خراجاً
او غيره . او ربما ارى ذلك في دبره بان يدخل فيه حلقوماً ببعض الرئة . وربما
فعلت ذلك المرأة بفرجها .

٢ - المزيدي : الذي يدور ومعه الدرهمات ويقول : هذه دراهم قد
جمعت لي في ثمن قطيفة ، فزيدوني فيها رحمكم الله ، وربما احتمل صيباً على انـه
لقبط ، وربما طلب في الكفن .

٣ - الإسـطـيل : هو المتعامي ، ان شاء اراك انه منخفض العينين ، وان
شاء اراك ان بها ماء ، وان شاء اراك انه لا يبصر .

٤ - الزكوري : هو خبز الصدقة ، كان على سجين او على سائل .

٥ - الكعبي : نسبة الى ابن كعب الموصلي ، وكان عريفاً من

عرفائهم .

معين من نفسك ، لما انتفعت بشيء من ذلك ؛ بل يعود ذلك النهي
كله اغراء لك ، وذلك المنع تهجيناً لطاعتك .

« قد بلغت في البر منقطع التراب ، وفي البحر اقصى مبلغ
السفن . فلا عليك ألا ترى ذا القرنين ... ولأنا اهدي من القطا
ومن دميميص (١) ومن رافع الخش (٢) . اني قد بت بالقفر مع
الغول ، وتزوجت السعلاة ، وجاوبت الهاتف ، ورغت عن الجن
الى الجن ، واصطدت الشق ، وجاوبت النسفاس . . وعرفت خدع
الكاهن وتدسيس العراف ، والى ما يذهب الخطاطو العياف (٣)
وما يقول اصحاب الاكتاف (٤) ، وعرفت التنجيم والزجر والطرق
والفكر .

« إن هذا المال لم اجمعه الا من القصص والتكديّة ، ومن

١ - دميميص : ذكره الميداني في شرح المثل : « ادل من دميميص
الرميل » فقال : « هو اسم رجل كان دليلاً خريّتاً داهياً يضرب به المثل ؛ فيقال :
هو دميميص هذا الامر ، أي عالم به » .

٢ - رافع الخش : هو رافع بن عمير الطائي ، وكان دليلاً خريّتاً في
زمان عمر بن الخطاب ، ومن أشهر ما يعرف به انه دل خالد بن الوليد حين خرج الى
الشام والياً عليها مكان ابي عبيده بن الجراح ، ففرز به بين قراقر وسوى .
ولعل هذا الحادث كان من اكبر ما خلد ذكر هذا الرجل .

٣ - الخط والعيافة والطرق والفكر : أنواع من الفراسة والعرافة والتنجيم .

٤ - اصحاب الاكتاف : طائفة من اهل الفراسة ، يصطنعون في ذلك
النظر في الاكتاف ، كما يصطنع غيرهم النظر في أسرار الكف وهي خطوطها .

احتياال النهار ومكابدة الليل (١) . ولا يجمع مثله ابداً الا من معاناة
ركوب البحر (٢) ، او من عمل سلطان ، او من كيمياء الذهب
والفضة . قد عرفت الرأس (٣) حق معرفته وفهمته سر (٤)
الا كسير على حقيقته . ولولا علمي بضيق صدرك ، ولولا ان اكون
سبباً لتلف نفسك ، لعلمتك الساعة الشيء الذي بلغ به قارون ، وبه
تبنتك خاتون (٥) . والله ما يتسع صدرك عندي لسر صديق ، فكيف

١ - مكابدة الليل : أي السرقة في الليل .

٢ - يقصد التجارة .

٣ - الرأس : نجد في فهرست ابن النديم في الفصل الذي عقده لوصف
مذاهب الخرافة الكادانيين قصة عجيبة وضعها تحت هذا العنوان : « حكاية في
الرأس » ، قال :

« انه رأس انسان صورته عطاردية ، على ما يعتقدونه في صور
الكواكب . يؤخذ ذلك الانسان اذا وجد على الصورة التي يزعمون انها
عطاردية ، بحيلة وغيلة ، فيفعل به أشياء كثيرة ، منها : يغمس في الزيت والبورق
مدة طويلة حتى تسترخي مفاصله ، وتصير في حال اذا جذب رأسه انجذب من غير
ذبح فيما أرى (ولذلك يقال : فلان في الزيت ، مثل قديم . هذا اذا كان في
شدة) . يفعلون ذلك كل سنة اذا كان عطارد في شرفه ، ويزعمون ان نفس
ذلك الانسان تتردد من عطارد الى هذا الرأس ، وينطق على لسانه ويخبر بما
حدث ، ويجب عما يسأل عنه ، لانهم يزعمون ان طبيعة الانسان أليق وأشبه
بطبيعة عطارد من سائر الحيوان ، وأقرب اليه بالتعلق والتميز وغير ذلك مما
يعتقدونه فيه » .

٤ - في الاصل : كسر

٥ - تبنتك به : أقام ، وفي عزمه : تمكن . وغالب الظن انه يقصد
بخاتون ، خاتون ملكة بخاري حتى سنة ثلاث وخمسين هجرية .

مالاً يحتمله عزم ولا يتسع له صدر . وخزن سر الحديث وحبس
كنوز الجواهر ، أهون من خزن العلم . ولو كنت عندي مأموناً
على نفسك لأجريت الأرواح في الأجساد ، وانت تبصر . اد كنت
لا تفهمه بالوصف ولا تحقه بالذكر . ولكني سألقي عليك علم الإدراك ،
وسبك الرخام ، وصنعة الفسيفساء ، وأسرار السيوف القلمية (١) ،
وعقاقير السيوف اليمانية ، وعمل الفرعوني (٢) ، وصنعة التلطيف (٣)
على وجهه ، ان اقامني الله من صرعتي هذه .

« ولست ارضاك وان كنت فوق البنين ، ولا اثق بك
وان كنت لاحقاً بالاباء ، لاني لم أبالغ في محنتك . اني قيد لا بست
السلطين والمساكين ، وخدمت الخلفاء والمكدين ، وخالطت
النسك والفتاك ، وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر ،
وحلبت الدهر اشطره ، وصادفت دهرأ كثير الاعاجيب . فلو لا اني
دخلت من كل باب ، وجريت مع كل ربح ، وعرفت السراء
والضراء ، حتى مثلت لي التجارب عواقب الامور ، وقربتني من
غوامض التدبير ، لما امكنتي جمع ما خلفه لك ، ولا حفظ ما حبسته
عليك . ولم احمد نفسي على جمعه ، كما حمدتها على حفظه ، لان بعض

-
- ١ - السيوف القلمية : يدها الجاحظ من مفاخر الهند ، وهم ألب الناس
بها ، وأحذقهم ضرباً بها . والسيوف القلمية ، سيوف هندية قديمة ، وكانت
صنائعها فيما يظهر - سرأ من الاسرار التي يفخر خالد بن يزيد بمعرفتها .
٢ - الفرعوني : نوع خاص من الزجاج يحتاج في صنعه الى معرفة خاصة .
٣ - صنعة التلطيف : نوع من التبخير أو التصعيد .

هذا المال لم أنه بالحزم والكيس . قد حفظته عليك من فتنة البناء ،
ومن فتنة النساء ، ومن فتنة الثناء ، ومن فتنة الرياء ، ومن ايدي
الوكلاء فانهم الداء العياء ...

«يا ابن الخبيثة ، انك وان كنت فوق ابناء هذا الزمان ، فان
الكفاية قد مسختك ، ومعرفتك بكثرة ما خلف قد افسدتك . وزاد
في ذلك ان كنت بكري وعجزة امك .

« أنا لو ذهب مالي لجلست قاصداً ، او طفت في الآفاق - كما
كنت - مكدياً ، اللحية وافرة بيضاء ، والخلق جهير طل (١) ،
والسمت حسن ، والقبول علي واقع . ان سألت عيني الدمع أجابت
- والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير - وصرت محتالاً
بالنهار ، واستعملت صناعة الليل ، او خرجت قاطع طريق ، او صرت
للقوم عيناً ولهم مجهرأ . سل غني صعاليك الجبل وزوا قيل الشام (٢)

١ - الطل : الحين المعجب .

٢ - صعاليك الجبل : يطلق اسم الجبل او الجبال على المنطقة الجبلية التي
قصبتهما همدان ، وهي المنطقة الواقعة بين العراق غرباً وصحراء ايران الكبرى
شرقاً وبين أذربيجان في الشمال والاهواز وفارس في الجنوب . اما فيما يتعلق
بصعاليك الجبل فلم الجاحظ يقصد بهم ما ذكرناه سابقاً - نقلاً عن البلاذري -
عن الصعاليك والذعار الذين كانوا في منطقة سمر . اما زوا قيل الشام : فهم
الصصوص او النور ، ويبدو انه الاسم الذي كان يطلق على هذه الطائفة في
الشام ، كما كان يطلق عليهم اسم الزط في البصرة وما حولها .

وزط الآجام ورؤوس الا كراد ومردة الاعراب وفتاك نهر بط (١)
 ولصوص القفص (٢) وسل عني القيقانية (٣) والقطرية (٤)، وسل
 عني المتشبهة وذباحي الجزيرة : كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف
 حيلتي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة ، وكيف ثبات جنائي
 عند رؤية الطليعة ، وكيف يقظتي اذا كنت ربيثة (٥)، وكيف كلامي
 عند السلطان اذا أخذت ، وكيف صبري اذا جلدت ، وكيف قلة
 ضجري اذا حبست ، وكيف رسفاني في القيد اذا أثقلت . فكم من
 ديماس (٦) قد تقبته ، وكم من مطبق (٧) قد أفضيته ، وكم من

-
- ١ - نهر بط : نهر بالاهواز وهي بين البصرة وفارس .
 ٢ - القفص : كلمة تطاق على جبل في كرمان ، ثم أطلقت على أهل
 ذلك الجبل ، وهم طائفة من الناس يسلكون مع الزط وهن اليهم في نظام واحد ،
 وهم معروفون بشراستهم وقسوة طباعهم .
 ٣ - القيقانية : لصوص قيقان ، وهي من بلاد السند مما يلي خراسان ،
 وصفها حكيم بن جبلة العبدى ، فنوه في وصفه بلصوصها اذ يقول : « ماؤها
 وشل ، ونورها دقل ، ولصها بطل » .
 ٤ - القطرية : نسبة الى قطر ، في أراض البحرين ، ومن المحتمل ان
 يكون هؤلاء القطرية قراصنة .
 ٥ - الربيثة : الطليعة والرقيب والحارس .
 ٦ - الديماس : الكن والسرب وسجن للحجاج بن يوسف بواسط ،
 سمي بهذا الاسم لظلمته .
 ٧ - المطبق : هو سجن العباسيين ببغداد ، ولعله يقصد بالديماس والمطبق
 كل سجن .

سجن قد كابدته . لم تشهدني و كرددويه الأقطع ايام سندان (١) ولا
شهدتني في فتنة سرنديب ، ولا رأيتني ايام حرب المولتان (٢) ، سل
عني الكتيفية والخليدية والخرمية والبلاية (٣) وبقية اصحاب صخر
ومُصخير ، وبقية اصحاب فاس وراس ومقلاس ، ومن لقي أزهر أبا
النقم ، كان آخر من صادفني حمدويه ابو الأرتال . وأنا مجيب
مردويه بن ابي فاطمة ، وأنا خلعت بني هاني .. (٤) ، وما كان النقاب
الاهدأما حتى نشأت ، وما كان الاستقفاء الا استلاباً حتى بلغت .

« وأنت غلام ، لسانك فوق عقلك ، وذكاؤك فوق خزمك ،
لم تعجمك الضراء ، ولم تزل في السراء ، والمال واسع ، وذرعك
ضيق . وليس شيء أخوف عليك عندي من حسن الظن بالناس ،
فاتهم شماك على يمينك ، وسمعك على بصرك ، وخف عباد الله على
حسب ما ترجو الله .. »

« ومات من ساعته ، وكفنه ابنه ببعض خلقانه ، وغسله

١ - سندان : مدينة ملاصقة لبلاذ السند .

٢ - المولتان : بلد في الهند ، على سمت غزنة ، وبها صنم تعظمه الهند
وتحج اليه من أقصى بلادها . اما حرب المولتان ، فاعله يقصد بها جروب والي
السند عمران بن موسى في خلافة المعتصم .

٣ - جماعات من الغوغاء الذين يبرزون في المدن وقت الفتن ، على نحو
ما حدث في فتنة الامين والمأمون ، في بغداد ، مما وصفه الطبري وصفاً ممتعاً .

٤ - اسماء جماعة من كبار المصوح وقطاع الطرق والصعاليك والفتاك .

بماء البئر ، ودفنه من غير ان يصرح له ، او يلحدله ورجع .. (١) .
 واشتهر من بني ساسان في القرن الرابع شعراء كبار هم :
 الأحنف العكبري وابو المكارم المطهر بن محمد البصري وابودلف
 الخزرجي . فالأحنف العكبري كان آدب بني ساسان ببغداد ، يقول
 فيه الثعالبى : « شاعر المكدين وظريفهم ، ومليح الجملة والتفصيل
 منهم .. وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام ، وحسن الطريقة
 في الشعر .. ولا أقل من اراد موضع افتخاره فانه يقول - في
 الحرفة الساسانية - :

على اني بمحمد الـ	ه في بيت من المجد
باخواني بني ساسا	ن أهل الجيد والجد
لهم أرض خراسان	فقاشان الى الهند
الى الروم الى الزنج	الى البلغار والسند
اذا ماعوز الطرق	على الطراق والجنـد
حذاراً من أعاديهم	من الأعراب والكرـد
قطعنا ذلك النهـج	بلا سيف ولا غمـد
ومن خاف أعاديـه	بنا في الزوع يستعدي

« ولهذا البيت الأخير معنى بديع وتفسيره : ان ذوي
 الثروة واهل الفضل والمروءة اذا وقع احدهم في ايدي قطاع
 الطريق واحب التخلص قال : انا مكدي - فيخلون سبيله .. وقال :

١ - الجاحظ : البخلاء ، ص : ٣٩ - ٤٠ ، طبعة دار الكاتب المصري .

العنكبوت بنت بيتاً على وهن
تأوي إليه ومالي مثله وطن
والخنفاء لها من جنسها سكن
وليس لي مثلهما إلف ولا سكن
» وقال :

قد قسم الله رزقي في البلاد فما
يكاد يدرك إلا بالتفاريق
ولست مكتسباً رزقاً بفلسفة
ولا بشعر ولكن بالخساريق
والناس قد علموا اني أخو حيل

فلست أنفق إلا في الرساتيق « (١)
أما المطهر البصري فهو « أحد من طوف في الآفاق ولا
راحلة له إلا الرحلة ، ولا حرفة إلا شحذ المذبة في الجدبة ، وهو
شاعر سريع الخاطر كثير النوادر في الجد والهزل وهو القائل :
رأيت الشعر للسادات عزاً ومنقبة وصيتاً وارتفاعاً
وللشعراء هوناً وانخفاضاً ومجلبة لذل واتضاعاً « (٢)
وأما أبو دلف الخزرجي ، مسعر بن مهلهل ، فانه « شاعر
كثير الملح والظرف ، مشحوذ المذبة في الجدبة ، خنق التسعين في

١ - يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص : ١١٧ - ١١٩

٢ - الثعالبى : تيمم اليتيمة ، ج : ١ ، ص : ١٨

الاطراب والاعتراب ، وركوب الاسفار الصعاب ... وكان ينتاب
 حضرة الصاحب (١) ، ويكثر المقام عنده ، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته ،
 ويرتفع بخدمته ، ويرتزق في جملة ، ويتزود كتبه في اسفاره ، فتجري
 بحرى السفاتج في قضاء اوطاره ، وكان الصاحب يحفظ مناة (٢)
 بني ساسان حفظاً عجيباً ، ويعجبه من ابي دلف وفور حظه منها .
 وكانا يتجاذبان اهدابها ويجريان فيما لا يفتن له حاضرها ، ولما أتخفه
 ابو دلف بقصيدته التي عارض بها دالية الاحنف العكبري في المناكة
 وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وانواع رسومهم وتنادر
 بادخال الخليفة المطيع لله في جملةهم وقد فسر لها تفسيراً شافياً كافياً ،
 اهتز ونشط لها وتبجح بها وتحفظ كلها واجزل صلتها عليها .. (٣)
 وهي قصيدة رائية طويلة اورد الثعالي معظمها عند ترجمته لأبي دلف
 في الجزء الثالث من تيمته ، وهي تعتبر في الحقيقة دستور بني ساسان
 لانها تحتوي على الفاظهم الاصطلاحية وعلى الكثير من انواع حيلهم
 وطرق ابتزازهم اموال الناس . وسند ذكر هنا بعضاً منها مع شروح
 الثعالي وتعليقاته عليه لنتبين بوضوح معالم هذه الفئة من الناس
 واعمالها . ومطلع هذه القصيدة :

جفون دمعها بجري لطول الصد والهجر

١ - الصاحب بن عباد ، وزير البويهيين في الري .

٢ - أي كلامهم الذي يتكدون به من مصطلحات خاصة .

٣ - الثعالي : يتيمة الدهر ، ج : ٣ ، ص : ٣٥٢ - ٣٥٣

ومنها :

على أني من القوم البهايل بني الغر
بني ساسان والحامي الحمي في سالف العصر
تغربنا الى أنثا تناءينا الى شهر
فظل البين يرمينا نوى بطناً الى ظهر
كما قد تفعل الريح بكثب الرمل في البر
فتحن الناس كل الناس في البر وفي البحر
أخذنا جزية الخلق من الصين الى مصر (١)
الى طنجة بل في كل أرض خيلنا تسري
اذا ضاق بنا قطر نزل عنه الى قطر
لنا الدنيا بما فيها من الاسلام والكفر
فتحن الميزقانيو نلا ندفع عن كبر (٢)
هم شقي فسلمني عنهم ينبيك ذو خبر
فمنا كل صلاح بكيد وافر نكر
الصلاح : الذي يصلح ، أي يجلد عميرة .

قد استكفي بكفيه عن الثيب والبكر
فلا يخشى من الائم ولا يؤخذ بالمهر
ولا يحذر من حيض ولا حمل على طهر

١ - انه يعتبر ما يستجدونه من الناس جزية يأخذونها منهم .
٢ - الميزقانيون : هم اصحاب الكدية ، وميزق : كدى

ومنا الكاغ والكافة والشيشق في النحر
الكاغ والكافة : المتجانن والمتجاننة . والشيشق : الحدائد
والتعاويد التي يلقونها على أنفسهم .

وأشكال وأغلال من الجلد او الصفر
ومن دروز او حرز او كوز بالدغر . . .
دروز : اذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء .
حرز : اذا كتب التعاويد والاحراز . كوز : اذا أقام بالمجلس ،
والمكوز : هو الذي يقوم في مجالس القصاص فيأمر القاص أصحابه
بإعطائه ، ثم اذا تفرقوا تقاسما ما أعطوه . والدغر : المقاسمة .

ومن رعس او كبس او غلس في الفجر
رعس : اذا طاف على جوانيت الباعة فأخذ من هنا جوزة
ومن هنا تمر وتينة . كبس : اذا دار فاذا نظر الى رجل قد حل
سفتجته كبسه وأخذ منه قطعة . غلس : اذا خرج الى الكدية
بغلس .

وحاجور وكذابا ت أهل الأوجه الصفر
الحاجور : الذي يثقب بيضة ويجعلها في حجره وهي تسيل
ماءً أصفر . الكذابات : العصابات يشدونها على جباههم فيوهمون
أنهم مرضى .

ومن ميسر أو مخطط واستنفر للشعر

ميسر : اذا كدى على انه من الثغر ، ويقال له الميسراني .
مخطر : اذا بلغ لسانه وأوهم ان الروم قطعوه .
ومن ناكذ في القينو ن من جوف ابي شمر
المنا كذة : ان يتقاسموا ما يأخذونه من الثياب والسلاح بعة
الغزو . والقينون : موضع القسمة . ابو شمر : أول من كدى
بعة الغزاة .

ومن دكك أو فكك أو بلفك بالحر
المدكك : الذي يحتال على من به وجع الضرس حتى يجعل
دود الجبن فيما بين اسنانه ثم يخرج به ويوهم انه أخرجه بالرقية .
فكك : اذا فك السلاسل على الطرق . بلفك : اذا جر الخواتيم
بالإبريسم الرقيق .

ومن بشرك أو نوذك أو أشرك باللهبر
بشرك : تزييا يزيي الرهبان زهداً . نوذك : اذا كدى على
انه من الحجاج . أشرك باللهبر : اذا قاسم شركاءه ما يأخذونه .

ومننا المصطبانيو ن من ميزق بالأسر
المصطبانيون : قوم يزعمون انهم خرجوا من الروم وتركوا
أهاليهم رهائن عندهم ، فطافوا البلاد ليجمعوا ما يفكونهم به ، وتكون
معهم شعورهم ويقال لذلك الشعر المصطبان .

ومننا كل مطراش من المكثوذة البُتتر

المطراش : الذي معه يده يكدي عليها ، ويقال لليد المقطوعة :

المكلوذة .

ومن يزئق أو يخنق أو يذلُق بالذبر

يزئق : يشقب في بدنه ثقبه وينفخ فيها حتى يتورم بدنه .

يخنق : يضع المندبل في رقبة نفسه ويفتله حتى ينتفخ رأسه ووجهه .

يذلُق : يمشي عريان الأست .

ومن شدد في القول ومن رمى في القصر

ومن شدد : قوم يكون معهم دفاتر حديث يروونها ويشددون

على الناس في اللواط وشرب الخمر . القصر : هو الأتون يدخله

الواحد من القوم فيطرح نفسه في الرماد ثم يخرج وعليه غبرة الرماد

ويوم انه أوى إليه من شدة البرد وعدم الملبوس .

ومن يزرع في الهادو ر تكسيحاً من البذر

الى ان يقع التنبل في محصدة الجزر

من يزرع في الهادور : قوم ينظرون في الفال والزجر

والنجوم ويعطون قوماً دراهم حتى يأتوهم ويسألوهم عن نجمهم وعمّاهم

فيه ، فينظرون لهم ثم يردون الدراهم عليهم قائلين : لاناخذها لان

لان نجمك ما خرج كما تريده . الهادور : كلام الحلقة التي يجتمع الناس

عليها . والتكسيح : المانة . التنبل : هو الأبله الذي يقبل الخاريق

على نفسه ويفتر بما يورد المنجم عليه ، فيخرج هو ايضاً دراهمه

طمعاً في ردها ، فيأخذها المنجم منه ويسخر به .

ومنا منفذ الطين وأصحاب اللحي الحمر

منفذ الطين : قوم يخضبون لحام بالحناء ، ويدعون أنهم شيعة ويحملون السبع والألواح من الطين وزعمون أنها من قبر الحسين بن علي رضي الله عنها فيتحفون بها الشيعة .

ومن شقف بالماء ومن شقف بالجمر

المشقف : هو الذي يأخذ ماء النوشادر فيكتب به الرقاع ويتركها بين يديه فإذا مر به الأبله قال له جرب بختك وخذ رقعة من هذه ، فيأخذها ثم يعطيه إياها فيقذفها في النار فيظهر المكتوب اسود ، وقد يعمل هذا الجنس بماء العفص فإذا غمس في ماء الزاج خرج اسود ، ويقال للرقعة : الشقيقة .

ومنا النائح المبكي ومنا المنشد المطري

النائح المبكي : قوم ينوحون على الحسين بن علي ويروون الأشعار في فضائله ومراثيه .

ومن ضرب في حب علي وإبي بكر

قوم يحضرون الأسواق فيقف واحد جانباً ويروي فضائل أبي بكر رضي الله عنه ، ويقف الآخر جانباً ويروي فضائل علي رضي الله عنه ، فلا يفوتها درهم الناصبي والشيعة ، ثم يتقاسمان الدراهم .

ومن قرمط او سرمط او خطط في سفر

قرمط : أي كتب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخط .

وسرط : كتب . والسرماط : الكتاب .

ومن دهشم بالكرش ويستبرد في النهر
ومن دهشم : مخرق وموه بانه صائم . والكرش : الصوم
والجوع ايضاً . ويكون قد أكل في منزله فاذا عطش نزل في النهر
بعلة الاستبراد وشرب ماأراد .

ومنا الشيخ هفصويه ويحي وأبو زكر
هفصويه وهؤلاء الذين سماهم : قوم نبط وعجم ، يكدون
ولا يتكلمون بالعربية .

ومن كان على رأي ابن سيرين من العبّر
من كان على رأي ابن سيرين : هؤلاء من البصرياء يعبرون
الرؤيا ويكدون من هذه الجهة .

ومنا قافة الرزق وأهل الفال والزجر
ومن يعمل بالزيج وبالتنور والجفر
ومنا البشتداريون تحت الرحل كالجر
البشتداريون : قوم يستأجرهم المكدون الذين يخرجون الى
القرى فيحملون رجالهم وما يجمعون بها من الحب والصوف وغيره .

ومنا كل مراس جسور جاهل هزر
يرى الخش فيأتيه بلا خوف ولا ذعر
فيستل الذي يخشا ه من شصوصه الخزر
ويبقى منه ما يصلح للمحنة والسبر

فهذا هالك لسمعاً وهذا كفه يبري
المراس : الحواء معه سلال فيها حيات . الخش : الاعمى .
الشصوص : الانياب يقلعها ويترك واحدة .

ومنا كل إسطيلى نقي الذهن والفكر
ومنا كل سباع عظيم الليث والبر
ومن قرذ او دبب من كل فتى غمر
الاسطيلى : الأعمى . ومن قرد او دبب : هم الذين يكدون
على المدينة والسباع والقردة .

وسنان وسنان ومن قتت كالسكر
والسان : الذي يعطي النساء دواء السمن . والسان : الذي
يعطي دواء الاسنان . وقتت : أكل القت بين ايدي الناس كالجمل .
ومنا شعراء الارض أهل البدو والحضر (١)
ومناقيم الدين المطيع الشائع الذكر
يكدي من معز الدولة الخبز على قدر (٢)
ومطلي دم الأخ مع المصموغ كالبر
ومطلي دم الأخ : هم الذين يضربون دم الاخوين والكثيراء

١ - جعل الشعراء كلهم من اهل الكدية لانهم يتكسبون بشعرهم .
٢ - تنادى ابو داف هنا بادخال الخليفة المطيع لله في جملة بني ساسان استجلاباً
منه لرضا صاحب بن عباد وزير البويهيين اذ صوّفه كمن يستجدي الخبز على قدر
من معز الدولة البويهى .

والصموغ وينفخونها على اجسادهم فيبدون وكأن بهم شوراً
فيكدون .

ومنا سعة الريح لضرب الكلب والهمر
وسعة الريح : قوم يرعدون رعدة شديدة تهتز لها
مفاصلهم وتصطك اسنانهم ، ويقول احدهم : انه قتل سنوراً او
كلباً فلطمته الجن .

ومن يمشي على الحبل ومن يصعد بالبكر (١)
ومنا الزنج والزط سوى الكباجة السمر
الكباجة : اللصوص ، كبيج : اذا سرق .

ومنا كل ذي سم خشوع القن كالخبر
يرقي وتراه با كياً دمعته تجري
ومن صاح بآمين من المزلق والذعر
فذا بقالنا سطل وذا استاذنا خروبي
وذا قصابنا عسم وذا البراز لا تبري
من المزلق : يريد هؤلاء العرأة ، الواحد مزلق ، يصيحون
بآمين في الاسواق . فاذا لم يعطهم اصحاب الحوائت شيئاً صاحوا
بآمين ودعوا عليهم بذا بقا لنا سطل : أي اعمه يارب ، وعسم : من
المسوم وهو المفلوج .

ومنا من تمشي يمسح البلدان كالنسر

١ . يفعل ذلك للمرقة .

وأصحاب التجافيف من الثامولة الصبر
أصحاب التجافيف : قوم يأوون المساجد عليهم مرقعات
كالتجافيف بعضها مركبة فوق بعض ، ويقال لهم الثامولة الصبر :
لصبرهم على شدة فقرهم .

وأصحاب الشقاات من المشاطح العكر
بنو التضريب واليدرب والتفتيق والأطـر
ترى للقمل في كل شقاع مائي وكـر
خلنجيون ماحضوا ولا باتوا على طهر
الشقاات : جمع شقاع ، وهو الوطاء اذا كان من ألوان
اولون واحد يكون مع جنس منهم ، فيدورون في المواضع ويسطون
الشقاع ويصلون عليها ولا يأوون الى موضع فلهذا يقال لهم : المشاطح ،
لان المشطح هو الذي يطوف دائماً لا يفتر . وبنو التضريب : قوم
ليس لهم عمل الا جمع الخرق معهم فهم ابداء في رتق او فتق .
والخلنجي : الذي يخزي ، ولا يغسل استه . ماحضوا : أي ماتطهروا .

ألا إني حلبت الدهر من شطر الى شطر
وجبت الارض حتى صر
ت في التطواف كالخضر
والغربة في الحر
فعال النار في التبر
وما عيش الفتى إلا
كحال المد والجزر
وبعض منه للخير
شفيت غلة الصدر
فان أظفر بآماله

وإما تكن الأخرى وعز جاز الكر
فلا أبت مع السفر غداة أوبسة السفر
ولا عدت متى عدت بلا عز ولا وفر
وحسبي القصب المطحو ن فيه ورق السدر
وأثواب تواريني من الأيذاء والأزر (١)

قال الثعالي : وأنشدني بديع الزمان لابي دلف ، ونسبه في
بعض المقامات الى ابي الفتح الاسكندري (٢) :

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور
زور ومخرق وكل وأطبق واسرق وطلبق لمن يزور
لا تلزم حالة ولكن در بالليالي كما تدور (٣)

وقد وصلت الحكاية التالية عن بعض المتأخرين نقلها آدم
متر عن مخطوطة كتاب « كشف الأسرار » للجوهرى الموجودة في
مكتبة فينيا (ص : ٢٥) :

« رأيت بحراً أن سنة ثلاثة عشر وستمئة رجلاً من بني
ساسان ، قد اخذ قرداً علمه السلام على الناس ، والتسبيح والسواك
والبكاء ، ثم رأيت لهذا القرد من الناموس مالا يقدر عليه احد ؛
فاذا كان يوم الجمعة أرسل عبداً هندياً حسن الوجه نظيف الملبوس

١ - الثعالي : يتيمة الدهر ، ج : ٣ ، ص : ٣٥٤ - ٣٧٣

٢ - المقامة الاولى « القريضية » .

٣ - يتيمة الدهر : ج ٣ ، ص : ٣٥٤

الى الجامع ، فيسقط عند المحراب سجادة حسنة ؛ فاذا كان في
الساعة الرابعة لبس القرد ملبوساً خاصاً من ملابس أولاد الملوك ،
وجعل في وسطه خياصة لها قيمة ، ثم طيَّبه ، ثم أركبه بغلة عمر كوب
مذهب محلى ، ثم مشى في ركابه ثلاثة عبيد هنود بأخضر ملبوس ،
الواحد يحمل الوطا ، والآخر يحمل الشرموذة ، والآخر يطارق
قدامه ، وهو يسلم على الناس ؛ وكل من سأل عنه ، يقول : هذا ابن
الملك الفلاني من اكبر ملوك الهند ، وهو مسحور ، فلا يزال حتى
يدخل الجامع فيفرش له الوطا فوق السجادة ، ويحيط له سبحة
ومسواكاً ، فيقلع القرد منديله من الخياصة ، ويضعه بين يديه ،
ويستاك بالمسواك ، ويصلي ركعتين تحية المسجد ، ثم يأخذ السبحة
ويسبح ، فاذا فعل ذلك نهض العبد الكبير على قدميه فسلم على الناس
وقال : يا أصحابنا ! من أصبح معافى فان الله عليه نعمة لا تحصى ، واعلموا
ان هذا القرد الذي ترونه بينكم ، والله لم يكن في زمانه أحسن
شباباً منه ، ولا أطوع لله تعالى منه . ولكن المؤمن ملقى لقضاء
الله ، وكان من القضاء المدبر ان زوجة والده ابنة الملك الفلاني ،
فأقام معها مدة ، ثم قالوا لها انه قد عشق مملوكاً له ، فأدركتها
الغيرة وطلبت دستوراً لها في زيارة أهلها ، فأذن لها في ذلك وجعلها
بما تحتاج اليه ، فلما حصلت عند أهلها سحرته كما ترون ، فلما رأى
والده ذلك قال : هذا اختلّف به عند الملوك ، فأمر بإخراجه من

ذلك الاقليم ، فأخرج . وقد سألناها بجميع الملوك (١) فادعت انها خلفت عنده أثاثاً قيمته مائة الف دينار ، وقد تخلف عليه عشرة آلاف ، من يساعده بشيء من ذلك ؟ فارجحوا هذا الشاب الذي عدم الاهل والملك والوطن ، فأخرج من صورته الى هذه الصورة ، فعند ذلك يجعل القرد المندبل على وجهه ويبكي ، فترق قلوب الناس لذلك ويرفده كل احد بما يسر الله ، فما يخرج من الجامع الا بشيء كثير ، وهو يدور به البلاد على هذه الصفة ، (٢)

وقد نلخص الحريري فلسفة هذه الطائفة بما أوروده على لسان ابي زيد السروجي في آخر المقامة الحرامية :

عش بالخـداع فأنت في	دهر بنوه كأسد ييشة
وأدر قنـاة المـكر حتى	تستدير ربحي المعيشة
وصد النـسور فان تعذ	ر صيدها فاقنع بريشة
واجن الثـمار فان تفتك	فرض نفسك بالحشيشة
وأرح فؤادك ان نبا	دهر من الفكر المطيشة
فتغار الاحداث يؤ	ذن باستحالة كل عيشة

ولا بد ان صفات هذه الجماعة وطبائعها ومعالمها وطريقة حياتها قد وضحت من خلال ما اوردناه . وقد كثر افرادها في القرن الرابع الهجري كثرة بالغة واشتهرت حيلها واعمالها عند

١ - اي مألوها ان تفك السحر عنه .

٢ - آدم متر ، ج ٢ ، ص ١٠٠ : ١٠٢

الناس جميعاً ، و بقيت منهم بقايا في القرون التالية . وإن ظهور
هذه الطائفة هو الذي حدا ببديع الزمان الهمداني الى تأليف
مقاماته . ورغم ما أورده الحريري في مقدمة مقاماته من أنه ألفها
بناء على اشارة ممن « اشارته حكم وطاعته غم الى ان ينشئ مقامات
يتلو فيها تلو البديع » فقد ذكر ياقوت الحموي عن الحريري انه
قال :

« ابو زيد السروجي كان شيخاً شجاعاً بليغاً ، ومكدياً
فصيحاً ، ورد علينا البصرة فوقف يوماً في مسجد بني حرام فسلم
ثم سأل الناس ؛ وكان بعض الولاة حاضراً والمسجد غاص بالفضلاء ،
فأعجبته فصاحته ، وحسن صياغة كلامه وملاحظته ، وذكر
أسر الروم ولده ، كما ذكرناه في المقامة الحرامية وهي الثامنة
والاربعون . قال : واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء
البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل وسمعت
من لطافة عبارته في تحصيل مراده ، وظرافة اشارته في تسهيل
ايراده ، فحكى كل واحد من جلسائه انه شاهد من هذا السائل في
مسجده مثل ما شاهدت ، وانه سمع منه في معنى آخر فصلاً أحسن
مما سمعت ، وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله ، ويظهر في فنون
الحيلة فضله ، فتعجبوا من جريانه في ميدانه ، وتصرفه في تلونه
واحسانه ، فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات ،

وكانت اول شيء صنعته ، (١).

فليست المقامة اذن الا أقصوصة او فكاهة صيغت بأسلوب ادبي ، وفق طريقة الادب الشائعة في عصر تأليفها ، وكان موضوعها احد اعمال هذه الطائفة او احدى حيلها ومفارقاتها في الوصول الى اللقمة واكتسبات اسباب العيش . فيتناول الكاتب هذه الحيلة او الفكاهة ويصيغها بأسلوب يحرص فيه على اظهار مهارته الادبية ومقدرته اللغوية والبديعية ، واحياناً آراءه في احد المواضيع . وكان جميع من ألف فيها عالة على الحمداني ومقلداً له وللحريري من بعده ، ولذلك كانت مقامات البديع أكثرها حيوية وطرافة لأنها كانت صوراً لأفراد هذه الطائفة الذين عايشهم مؤلفها وشاهد حيلهم ونواديرهم وأفاعيلهم .

وايس علينا بعد ما تقدم الا ان نرى كيف ارتسمت حياة هذه الطائفة واعمالها في مقامات الحمداني والحريري فنورد فيما يلي واحدة او اثنتين من مقامات كل منها للتسهيل على القارئ الذي قد لا تكون كتب المقامات في متناول يده .

المقامة البغدادية

لبريع الزمان المرمزاني

حدثنا عيسى بن هشام قال : اشتيت الازاذ (١) وأنا ببغداد ، وليس معي عقد على نقد (٢) فخرجت انتهر محاله حتى أحلني الكرخ ، فاذا أنا بسوادي (٣) يسوق بالجهد حماره ، ويطرف بالعقد إزاره (٤) . فقلت : ظفرونا والله بصيد ، وحيالك الله أبا زيد ، من اين أقبلت ، واين نزلت ، ومتى وافيت ، وهلم الى البيت . فقال السوادي : استُ بأبي زيسد ، ولكي ابو عبيد . فقلت : نعم ، لعن الله الشيطان ، وأبعد النسيان ، أنسانيك طول العهد ، واتصال البعد ، فكيف خال اييك ؟ أشاب كمهدي ، ام شاب بعدي ؟ فقال قد نبت الربيع على دمنته (٥) وأرجوان يصيره الله الى جنته . فقلت إنا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ومددت يد البدار (٦) الى الصدار أريد تمزيقه . فقبض السوادي

١ - الازاذ : من اجود انواع التمر .

٢ - اي ليس معه نقد يعقد عليه كيسه او منديله او طرف ثوبه .

٣ - السوادي : فلاح من سواد العراق .

٤ - أي عقد طرف إزاره على نقوده .

٥ - دمنته : آثار قبره .

٦ - البدار : المارعة .

على خصري بجمعه (١) وقال : نشدتك الله لامرئته . فقلت : هلم
الى البيت نضب غداً ، او الى السوق نشتر شواءً ، والسوق اقرب ،
وطعامه اطيب . فاستفزته حجة القرم (٢) ؛ وعطفته عاطفة
اللقم (٣) ؛ وطمع ، ولم يعلم انه وقع . ثم أتينا شواءً يتقاطر
شواؤه عرقاً ، وتتسائل جوذاياته (٤) مرقاً . فقلت : افرز لابي زيد
من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك
الاطباق ، وانضد عليها اوراق الرقاق (٥) ، ورش عليه شيئاً من ماء
الساق ، لياكله ابو زيد هنياً . فانحنى الشواء بساطوره على زبده
تنوره فجعلها كالبحل مسحاً . ثم جلس وجلست ، ولا يش ولا
يُست (٦) حتى استوفينا ، وقلت لصاحب الحلوى : زن لأبي زيد
من اللوزينج (٧) رطلين فهو اجرى في الخلق ، وأمضى في العروق ،

١ - جمع الكف : قبضته .

٢ - حمة القرم : شدة الشهوة الى اكل اللحم خاصة .

٣ - اللقم : الاكل السريع .

٤ - الجودابات : جمع جودابة ، وهي خبز يعلق عليه او فوقه طائر او لحم
او غيره ، يشوى فيقطر على ذلك الخبز .

٥ - الرقاق : خبز رقيق ، وجعل آحاده اوراقاً لبدل على انتهائه في الرقة
الى حد يشبه رقة الورق .

٦ - اي ان كلا منهما كان يطمع في ابتلاع ما بين يديه .

٧ - اللوزينج : نوع من الحلواء يصنع من نوع من الخبز ويسقى بدهن
اللوز ويحشى بالجوز واللوز .

ولیکن لیلي العمر ، یومی النشر (۱) رقیق القشر ، کثیف الحشو ،
لؤلؤی الدهن ، کوکی اللون ، یذوب كالصمغ لیاً کله ابو زید
هنیاً ، قال : فوزنه ثم قعدو قعدت ، وجردو جردت ، حتی استوفیناه .
ثم قلت : یاأبا زید ما احوجننا الی ماء یشعشع بالثلج لیقمع هذه
الصارة (۲) ویفتأ (۳) هذه اللقم الحارة ، اجلس یاأبا زید حتی
نأتیک بسقاً ، یأتیک بشربة ماء . ثم خرجت وجلست بحیث اراه ولا
یرانی أنظر ما یصنع . فلما ابطأت علیه قام السوادی الی حماره ، فاعتلق
الشواء بازاره ، وقال : این ثمن ماأکلت ؟ فقال ابو زید : أکلتہ
ضیفاً . فکمه لکمة ، وثنی علیه بلطمة ، ثم قال الشواء : هاک ، ومتی
دعوناک ؟ زن یاأخا القحة عشرين (۴) فجعل السوادی یبکی ویحمل
عقده باسنانه ویقول : کم قلت لذاک القرید ، انا ابو عبید ، وهو
یقول : انت ابو زید . فأنشدت :

اعمل لرزقک کل آله لا تقعدن بکل حالة
وانهض بکل عظیمه فالمرء یعجز لامحالة (۵)

-
- ۱ - أي قد صنع باللیل ونشر من مصنعه بالنهار فیكون قد یضج وسرت
الخلاوة فی جمیع اجزائه .
۲ - الصارة : العطش .
۳ - یفتأ : یسکن .
۴ - ای اعط زنة عشرين درهماً .
۵ - ای ان علی المرء فی زمن القدرة ان ینهض الی العظام فینالها قبل
ان یدرکه العجز .

المقامة الموصلية

لبديع الزمان الهمذاني

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما قفلنا من الموصل ، وهممنا
بالمزول ، وملكت علينا القافلة ، واخذ منا الرجل والراحلة ، جرت
بي الحشاشة (١) الى بعض قراها ومعي الاسكندري ابو الفتح .
فقلت : أين نحن من الحيلة ؟ فقال : يكفي الله . ودفعنا الى دار قد
مات صاحبها ، وقامت نوادبها ، واحتفلت بقوم قد كوى الجزع
قلوبهم وشقت الفجيعة جيوبهم ، ونساء قد نثرن شعورهن ، يضربن
صدورهن ، وجددن (٢) عقودهن ، يلطمن خدودهن . فقال
الاسكندري : لنا في هذا السواد نخلة ، وفي هذا القطيع سخلة .
ودخل الدار ينظر الى الميت وقد شدت عصابته لينقل ، وسخن
ماؤه ليفسل ، وهيء تابوته ليحمل ، وخيطت أثوابه ليكفن ،
وحفرت حفرته ليدفن . فلما رآه الاسكندري اخذ حلقه ، فحس
عرقه ، فقال : يا قوم ! اتقوا الله لاتدفنوه فهو حي ، وانما عرته
بهنة (٣) ، وعلته سكتة ، وأنا أسلمه مفتوح العينين ، بعد يومين .

١ - الحشاشة : بقية النفس ، اي اسرع به ما بقي من حياته الى بعض
قرى الموصل لعله يجد فيها منجى ويصيب ما يحفظ عليه تلك البقية من الحياة .

٢ - جددن : قطعن .

٣ - عرته بهنة : طرأ عليه عارض بهنة ، أي قطعه عن الكلام وغيره
من اعمال الحياة .

فقالوا : من أين لك ذلك ؟ فقال : إن الرجل إذا مات برد إبطه ، وهذا الرجل قد لمستته فعلمت أنه حي . فجعلوا أيديهم في إبطه فقالوا : الأمر على ما ذكر ، فافعلوا كما أمر . وقام الاسكندري الى الميت فزرع ثيابه ثم شدد له العنائم ، وعلق عليه التائم ، وألقه الزيت ، وأخلى له البيت ، وقال : دعوه ، ولا تردعوه (١) ، وإن سمعتم له أنيناً فلا تحيروه . وخرج من عنده وقد شاع الخبر وانتشر ، بأن الميت قد نشر ، وأخذتنا المبار (٢) ، من كل دار ، وانثالت علينا الهدايا من كل جار ، حتى ورم كيسنا فضة وتبراً ، وامتلأ رحلنا أقطاً (٣) وتمراً ، وجهدنا ان ننتهز فرصة في الهرب فلم نجدها حتى حبل الاجل المضروب ، واستنجز الوعد المكذوب . فقال الاسكندري ، هل سمعتم لهذا العليل ركزاً (٤) ، أو رأيتم منه رمزاً ؟ فقالوا : لا . فقال : إن لم يكن صوت مذ فارقه ، فلم يحجب بعد وقته ، دعوه الى غد فانكم اذا سمعتم صوته ، أمنت موته ، ثم عرفوني لا حتال في علاجه ، وإصلاح ما فسد من مزاجه . فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غد . قال : لا . فلما ابتسم ثغر الصبح ، وانتشر جناح الضو ، في أفق

١ - أي اذا تحرك حركة بعد سريان الحياة فيه فلا تردعوه ولا تكفروه عنها .

٢ - المبار : الصلات والبهات .

٣ - الأقط : اللبن الخامض يملح ويحفظ .

٤ - الركز : الصوت بأنين ونحور .

الحو ، جاءه الرجال أفواجا ، والنساء أزواجا ، وقالوا : نحب ان
تشفى العليل ، وتدع القال والقيل . فقال الاسكندري : قوموا
بنا اليه . ثم حذر التهام عن يده ، وخل العائم عن جسده ، وقال : أنيموه
على وجهه ، فأنيم ، ثم قل : أقيموه على رجليه ، فأقيم ، ثم قل : خلوا
عن يديه . فسقط رأسيا . وطن الاسكندري بفيه وقال : هو ميت
كيف أحياه ؟ فأخذه الخف ، وملكته الاكف ، وصار اذا رفعت
عنه يد وقعت عليه أخرى . ثم تشاغلوا بتجهيز الميت ، فانسللنا
هاربين حتى أتينا قرية على شفير واد ، السيل يطرفها ، والماء
يتحيفها ، وأهلها مغتمون لا يملكهم غمض الليل ، من خشية السيل .
فقال الاسكندري : يا قوم ! انا اكميكم هذا الماء ومعرفته ، وأرد
عن هذه القرية مضرته ، فأطيعوني ، ولا تبرموا أمرا دوني .
فقالوا : وما أمرك ؟ فقال : اذبحوا في مجرى الماء بقرة صفراء ،
وأتوني بجارية عذراء ، وصلوا خلفي ركعتين يشن الله عنكم عنان
هذا الماء ، الى هذه الصحراء ، فان لم يشن الماء فدمي عليكم حلال .
قالوا : نفعل ذلك . فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية ، وقام الى
الركعتين يصليهما وقال : يا قوم اجفظوا انفسكم . لا يقع منكم
في القيام كبو ، او في الركوع هفو ، او في السجود سهو ، او في
العود لغو ، فمضى سهونا خرج أملنا عاطلا ، وذهب عملنا باطلا ،
واصبروا على الركعتين فمساقتها طويلة . وقام للركعة الاولى فانتصب
انتصاب الجزع ، حتى شكوا وجع الضلع ، وسجد ، حتى ظنوا أنه قد

هجد ، ولم يشجعوا لرفع الرؤوس ، حتى كبر للجلوس ، ثم عاد الى
السجدة الثانية وأوماً إلي فأخذنا الوادي وتركنا القوم ساجدين
لا نعلم ما صنع الدهر بهم . فأنشأ ابو الفتح يقول :

لا يبعد الله مثلي	وأبى مثلي أينما
لله غفلة قوم	غنمتها ، باللهوينا
إكملت خيراً عليهم	وكلت زوراً ومينا

المقام: الاسكندرانية

للحزبي

قال الحارث بن همام : طحاني (١) مرح الشباب ، وهوى
الاكتساب ، الى ان جبت ما بين فرغانة وغانة ، أخوض الغار ، لأجني
الثمار ، واقتحم الاخطار ، لكي ادرك الأوطار ، و كنت لقفت من أفواه
العلماء ، وثقفت من وصايا الحكماء : انه يلزم الاديب الأريب ، اذا
دخل البلد الغريب ، ان يستميل قاضيه ، ويستخلص مراضيه ، ليستد
ظهره عند الخصام ، ويأمن في الغربة جور الحكام ، فأنخذت هذا
الادب إماماً ، وجعلته لمصالحى زماماً ، فما دخلت مدينة ، ولا ولجت
عرينة (٢) إلا وامتزجت بحاكمها امتزاج الماء بالراح ، وتقويت بعنايته
تقوي الأجساد بالارواح . فبينما انا عند حاكم الاسكندرية في عشية
عريئة (٣) وقد احضر مال الصدقات ، ليفضه على ذوي الفاقات ، اذ
دخل شيخ عفريه (٤) تعتله امرأة مصيبة (٥) ، فقالت : أيد الله
القاضي وأدام به التراضي ؛ اني امرأة من أكرم جرثومة ، وأطهر

١ - طحاني : ذهب بي .

٢ - عرينة : عرين ، مأوى الامم .

٣ - عريئة : شديدة البرد ، او ذات ريح باردة .

٤ - عفريه : بفتح الباء ، خبيث شديد الدهاء .

٥ - مصيبة : اي ذات صبيان .

أرومة ، وأشرف خؤولة وعمومة ، ميسمي الصون ، وشيمتي الهون
 وخلق نعم العون ، وبين جراتي بون ؛ وكان أبي إذا خطبني
 بناة المجد وأرباب الجد ، سكنتهم وبكثتهم ، وعاف وصلتهم وصلتهم
 واحتج بأنه عاهد الله تعالى بحلفة أن لا يصاهر غير ذي حرفة ؛ فقيض
 القدر لنصي (١) ووصي (٢) أن حضر هذا الخدعة نادي أبي
 وأقسم بين رهطه ، أنه في شرطه ، وإدعى أنه طالما نظم درة إلى
درة ، فباعها بيدرة ؛ فآثر أبي برّ خرف محاله ، وزوجنيه قبل
اختبار حاله ؛ فلما استخرجني من كناسي (٣) ورحلني عن أناسي
وتقلني إلى كسره (٤) وحصلني تحت أسره ، وجدته قعدة جثمة ،
وألفيته ضجعة نومة ، وكنت صحبته برياش وزري ، وأثاث وري (٥) ،
فما برح يبيعه في سوق الهضم ، ويتلف ثمنه في الخضم والقضم (٦) ،
إلى أن مزق مالي (٧) بأسره ، وأنفق مالي في عسره ، فلما أنساني

-
- ١ - النصب : التعب .
 ٢ - الوصب : المرض .
 ٣ - الكناس : المنزل ، وأصله بيت الظبي أو بقر الوحش .
 ٤ - كسره : أي جانب بيته .
 ٥ - الري : حسن الحال وكثرة النعمة .
 ٦ - الخضم : الأكل بجميع الفم ، والقضم : الأكل باطراف الأسنان .
 وقيل : الخضم : أكل الرطب ، والقضم : أكل اليابس ، يريد أنه يصرف ثمنه في
 أنواع الأكل والملاذات .
 ٧ - أي الذي لي .

طعم الراحة ، وغادر بيتي أنقى من الراحة (١) ، قلت له : يا هذا
انه لا نجياً بعد بوس ، ولا عطر بعد عروس ، فانهض لاكتساب
بصناعتك ، وأجتنى ثمرة براعتك . فزعم ان صناعته قد رमित
بالفساد ، لما ظهر في الارض من الفساد ؛ ولي منه سلالة ، كأنه
خلالة (٢) ، وكلانا ما ينال معه شبعة ، ولا ترقأ له من الطوى دمة ؛
وقد قدته اليك ، وأحضرتك لديك ، لتعجم عود دعواه ، وتحكم
بيننا بما أراك الله .

فاقبل القاضي عليه وقال له : قد وعيت قصص عرسك ،
فبرهن الآن عن نفسك ، والا كشفت عن لبسك (٣) وأمرت
بحبسك .

فاطرق إطراق الافعوان ثم شمر للحرب العوان (٤) وقال :
إسمع حديثي فانه عجب يضحك من شرجه وينتحب
أنا امرؤ ليس في خصائصه عيب ولا في خواره ريب
سروج داري التي ولدت بها والاصل غسان حين أنقست
وشغلي الدرس والتبحر في العلم طلابي وحبذا الطالب
ورأس مالي سحر الكلام الذي منه يصاغ القريض والخطب

١ - الراحة : بطن الكف ، لنقائه من الشعر .

٢ - الخلالة : عود الخلعة ، تخلل به الإنسان .

٣ - لبسك : اشكالك وتعمية امرئ .

٤ - الحرب العوان : الحرب التي قبلها حرب وهي تكون اشد من

الاولى .

أغوص في لجة البيان فأختار الآلي منها وأنتخب
واجتني اليانع الجني من القول وغيري للعود محتطب
وأخذ اللفظ فضة فاذا
و كنت من قبل أم تري نشباً
و تمتطي أخصي لحرمة
وظالما زفت الصلات الى
فاليوم من يعلق الرجاء به
لا عرض ابنائه بضان ولا
كانهم في عراضهم جيف
فخار لي لما منيت به
وضاق ذرعي لضيق ذات يدي
وقادني دهري المليم الى
فبعث حتى لم يبق لي ابد
وادنت حتى اثقلت سالفتي
ثم طويت الحشا على سغب
لم أر الا جهازها عرضاً
فجأت فيه والنفس كارهة
والعين عبرى والقلب مكتئب

١. الإل : العهد والقرابة والجوار .

٢. البتات : الزاد ومتاع البيت .

٣. السالمة : صفحة العنق ، وقيل مقدمة .

وما تجاوزت اذعبت به
فان يكن غاظها توهمها
او انني اذ عزمت خطبتها
فو الذي سارت الرفاق الى
ما المكر بالمحصنات من خلقي
ولا يدي مذنشات نيط بها
بل فكرتي تنظم القلائد لا
كفي وشعري المنظوم لا السخب (٢)
فهذه الحرفة المشار الى
ما كنت أحوي بها واجتلب
فأذن لشرحي كما اذنت لها
ولا تراقب واحكم بما يجب (٣)
قال : فلما احكم ما شاده ، واكمل انشاده ، عطف القاضي الى
الفتاة ، بعد ان شعف (٤) بالابيات وقال : قد ثبت عند جميع الحكام
وولاية الاحكام ، انقراض جيل الكرام ، وميل الايام الى اللئام ،
وإني لاخال بملك صدوقاً في الكلام ، برياً من الملام ، وهاهو قد
اعترف لك بالقرض ، وصرح عن المحض ، وبين مصداق النظم ،
وتبين انه معروق العظم (٥) ، وإعانات المعذر ملائمة ، وحبس

- ١ - اي ان يكن غاظها توهمها انني صائغ عندما قلت انني ناظم در .
- ٢ - السخب : جمع سخاب ؛ وهو القلادة من قرنفل وغيره .
- ٣ - لا تراقب : اي لا تنظر الى واحد منا ولا تعدل عن الحق .
- ٤ - شعف : بالعين المهملة ، من شعف الحب فؤاده اي علاه وشمله .
- ٥ - معروق العظم : كناية عن الهزال ، يقال : عظم معروق ، اذا اخذ ما عليه من اللحم .

المعسر مألومة ، وكتمان الفقر زهادة ، وانتظار الفرج بالصبر عبادة ،
فارجمي الى خدرك ، واعذري أبا عذرك (١) ، ونهني (٢) عن
غربك ، وسلمي لقضاء ربك . ثم انه فرض لهما في الصدقات حصصا ،
وناولهما من دراهمها قبصة (٣) ، وقال لهما : تعللا به هذه العلالة ،
وتنديا بهذه البلالة واصبرا على كيد الزمان وكده ، فمسي الله ان
يأتي بالفتح او أمر من عنده ، فنهضا وللشيخ فرحة المطلق من
الاسار ، وهزة الموسر بعد الاعسار ؛ قال الراوي : وكنت عرفت
انه ابو زيد ساعة بزغت شمسها ، ونزغت (٤) عرسه ، وكدت افصح
عن افتنانه ، وإتمار افنانه ، ثم اشفقت من عشور القاضي على بهتانه ،
وتزويق لسانه ، فلا يرى عند عرفانه ، ان يرشحه لاحسانه ،
فأحجمت عن القول احجام المرتاب ، وطويت ذكره كطي
السجل (٥) للكتاب ، الا اني قلت بعد ما فصل (٦) ، ووصل الى ما وصل :
لو ان من ينطلق في اثره ، لاتانا بفص خبره (٧) وبما ينشر من

-
- ١ - ابو عذر المرأة : زوجها الاول الذي افنض بكارتها وازال عذرتها
 - ٢ - اي كفي وازجري نفسك عن الحدة .
 - ٣ - القبصة : ما يتناوله الانسان باطراف اصابعه .
 - ٤ - النزغ : الذكر بالقبيح والافساد بين الناس ، وهنا خاصيته عرسه .
 - ٥ - السجل : اسم ملك ، وقيل كاتب النبي (ص) ، وقيل هو الصحيفة فيها
الكتابة ، اي كما تطوي الصحيفة الكتابة .
 - ٦ - فصل : ذهب .
 - ٧ - فص خبره : حقيقة حاله .

حبره ، فأتبعه القاضي احد أمنائه ، وأمره بالتجسس عن أنبائه ،
 فلما لبث ان رجع متدهداً (١) وقهقر مقهقهاً ، فقال له القاضي :
 مهم (٢) يا أبا مريم ؟ فقال : لقد عاينت عجباً ، وسمعت ما أنشأ لي طرباً .
 فقال له : ماذا رأيت ، وما الذي وعيت ؟ قال : لم يزل الشيخ منذ
 خرج يصفق بيديه ، ويخالف بين رجله (٣) ويغرد بملء شديقه
 ويقول :

كدت أصلي بيلية من وقاح شمريه (٤)
 وأزور السجون لولا حاكم الاسكندرية

فضحك القاضي حتى هوت دنيته (٥) وذوت سكينته ، فلما
 فاء الى الوقار ، وعقب الاستغراب بالاستغفار قال : اللهم بحرمه
 عبادك المقربين ، حرّم حبسي على المتأدين ، ثم قال لذلك الامين :
 عليّ به . فانطلق مجدداً في طلبه ثم عاد بعد لايه ، مخبراً بنأيه . فقال
 له القاضي : اما انه لو حضر ، لكفي الحذر ، ثم لا وليته بما هو به
 أولى ، ولا ريته ان الآخرة خير له من الاولى . قال الحارث بن
 همام : فلما رأيت صغو (٦) القاضي اليه ، وفوت ثمرة التنبيه عليه ،

١ - التدهده : الاسراع .

٢ - مهم : اي ما الخبر ، وهي كلمة لاهل اليمن .

٣ - يخالف بين رجله : يرقص .

٤ - الشمري : الماضي في الامور ، الحاد فيما يحاول .

٥ - الدنية : قلنسوة طويلة يابسها القضاة ، كأنها منسوبة الى الدن .

٦ - الصغو : الميل .

عُشيتي ندامة الفرزدق حين أبان النوار (١) والكسعي (٢) لما
استبان النهار .

١ - النوار : اسم زوجة الفرزدق وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك .
٢ - الكسعي : هو عامر بن الحارث نسبة الى كسع ، وهو حي من بني
تميم ، كان راعياً وعمل قوساً بعد طول تعب ثم رمى عنها ليلاً فنفذت في الرمية
ووقع السهم في حجر ففدح منه الشرر ، فظن ان السهم اخطأ الرمية ورمى ثانياً
وثالثاً الى آخر الاسهم وكانت نجساً وهو يظن خطأه ، فعمد الى قوسه فكسرها ثم
بات . فلما اصبحت بين ان اسهمها كلها اصابته فندم ندماً شديداً ، فضربت العرب بالمثل
به في الندامة .

الفهرس

صفحة

٣	مقدمة المؤلف
٤	المقامة في التاريخ
٩	هل المقامة قصة ؟
١١	المقامة من ابتكار الهمداني
١٩	تطور المجتمع الاسلامي حتى القرن الرابع الهجري
٤٠	الوضع الاجتماعي والطبقي في
٦٨	أهل الكدية أبطال المقامات
١٠٢	المقامة البغدادية - للهمداني
١٠٥	الموصلية -
١٠٩	الاسكندرانية - لاجري

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢١	٤	الملوب	المغلوب
٢٥	١٣	ومن عبدة	، من عبدة
٢٨	١	ومما	وممن
٣٥	١٦	سنة ؟	نة
٥٤	١٩	الذ	الذي
٦٢	٧	والدها	والاها
٧٧	٩	لقد	قد
٧٧	١٤	ذاك	ذلك
٧٨	٣	كبي	كعبي
٩٤	١٩	صووه	صوره
٩٦	٦	اليدرب	التدرب
٩٩	٧	أوروده	أورده
١٠١	٥	اكتسات	اكتساب

مشورات

دار ابن الوليد

- | | | |
|---|--------------|---------------------|
| ★ معركة التروستات | هنري يري | نجاح ساتي السباعي |
| ★ اصول الحرية | روجيه غارودي | بدر الدين السباعي |
| ★ دور الفرد في التاريخ | بليخانوف | احسان سر كيس |
| ★ الصين في طريق الاشتراكية | { | نجاح ساعاتي السباعي |
| | | بدر الدين السباعي |
| ★ اغاثة الامة | المقرزي | |
| ★ مخاطر جمع الاسلحة وحرب | هنري كلود | بدر الدين السباعي |
| ★ استراتيجية الحرب الثورية | ماوتسي تونغ | دار ابن الوليد |
| ★ الفن والحياة الاجتماعية | بليخانوف | احسان حصني |
| ★ حق الامم في تقرير المصير | لينين | دار ابن الوليد |
| ★ الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية | انجلز | عبد النافع طلحات |
| ★ الحرب والشعوب | | بدر الدين السباعي |
| ★ امر الكذبة أبطال المقامات في الادب العربي | | عبد النافع طلحات |

فريقاً

- ★ معطيات تكبائية لمؤلف لينين عن الاستعمار
- ★ لينين - فارغا - منداس
- ★ الانسان والطبيعة . . .
- ★ أمتان برجوازية واشتراكية . . .
- ★ قصص
- ★ موجز الاقتصاد السياسي
- ★ كادية العلوم في الاتحاد السوفياتي

١٥٠

